الطبعة الثانية

بئر الحيات

رواية

اسم الكتاب: بئر الحيات
اسم المؤلف: مي حسام أبو صير
التصنيف: رواية
الحجم: 14 - 20
عدد الصفحات: 126
سنة الإصدار: 2024
رقم الإيداع: 29477 / 2024
الترقيم الدولي: 9 – 067 – 971 – 977 - 978
تدقيق لغوي: د. هبة ماردين
تصميم غلاف: منى الموجي
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

الناشر
ديوان العرب للنشر والتوزيع

إميلات الدار
dewanalarabegypt@gmail.com
dewanelarab1978@gmail.com

بئر الحيات

رواية

مي حسام أبو صير

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

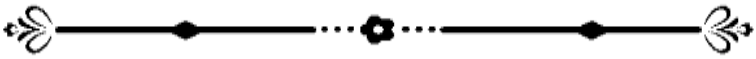

إهداء

إلى روح ترافقني ونور يضيء طريقي...

إلى أبي....

مي حسام أبو صير

****

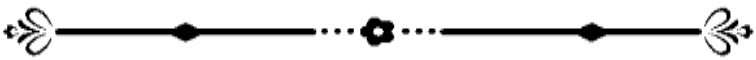

إلى كلّ من عاش صراعًا بين القلب والعقل، حارَب نفسه، واستمر في البحث عن شعاع نور في عتمة الخيانة...

استمر في البحث عن مخرج من بئر الحيّات.

الفصل الأول

تتسارع أنفاسها؛ محاولة الهرب من العاصفة الهائجة في صدرها، بركان انفجر بعد أن تلقّت رسالة نصية عبر إحدى تطبيقات الهاتف الجوال، تعيد قراءتها مرات ومرات، تحاول استيعاب ما كُشف أمامها من مجهول، وبخطوات مثقلة، تحركت باتجاه غرفة المكتب الخاصة بزوجها، والتي لم تفكر يومًا العبث بما تحتويه، تبعثر ما تجده أمامها، تُفرّغ فيه جام غضبها، وكأنّها تحاول تمزيق كلّ ما أودعه في حياتها من كذب وخداع، تُسقط عليها عواصف من القهر، وبكلّ ما أوتيت من قوة، تمكنت من كسر قفل الدرج المغلق على أسراره، والتي لم تشك يومًا أنّ به ما سيجلب لها لعنة ستظلّ تلاحقها إلى الأبد.

بنشيج بدأ صداه يضرب أنفاسها المتقطعة، تيقنت أنّ ما وصلها لم يكن خدعة مجهول يسعى للانتقام؛ بل كان حقيقة أراد بها الغاية نفسها، نظرت إلى زجاج النافذة، تتأمل انعكاس صورتها رغم قتامة لونه، وكأنّها تكتشف نفسها من جديد، تلك التي يراها الجميع جميلة، لم تعد ترى في عينيها الفيروزيتين بريقًا مميزًا، بشرتها البيضاء التي طالما كانت مثالًا للنضارة والشباب، الآن قاتمة كقتامة الحقيقة التي بدأت تتضح أمامها، هل كانت تبدو هكذا في نظره، يراها كما يعكس الزجاج الآن؟

نظرت خلف صورتها المنعكسة بشرود؛ فرأته رغم الغمامة التي تسبح أمام عينيها وقد جعلت الرؤية ضبابية، ترتعش صورته كرعشة شفتيها وهي تحاول النطق بأيّ كلمة، مصدومة فيه وفي اثني عشر عامًا مضوا، اكتشفت أنّها عاشت فيهم وهم الإخلاص والحبّ.

استطاعت أخيرًا أن تخرج حروفها المرتجفة وهي تمسح بأناملها عن وجنتيها نهرًا من دموعٍ حارة كحرارةِ قلبها المخدوع قائلة: كيف لم أشعر بخيانتك؟! كيف صدقت أنّني لك الدنيا والأمان؟

_لم أخُنكِ، مودة.

بسخرية وصوت ترتجف فيه الحروف خشية البوح بالحقيقة، تشير على الورقة التي تحملها بيدها، قالت: ماذا؟! هل ستنكر ما أراه الآن بعيني؟!

_لن أنكر، إنّه حقي.

_حقك! وأين حقي أنا؟!

_لم أُقصر معك بأي شكل، طلباتك مجابة قبل أن تفكري بها، يحسدكِ كلّ من حولكِ.

_كيف استطعت خداعي كلّ تلك السنوات؟

_أعطيتك كلّ ما تتمنين، ما الذي كان ينقصك؟

التقطت أنفاسها بصعوبة، أمسكت رأسها، وكأنّها تغلقه لتبعد هذه الأفكار عن عقلها الذي أوشك على الجنون، عيناها تشتعلان بنيران غضب لا

تستطيع أن تطفئها دموع الصدمة، وصاحت قائلة: ليس لها معنى سوى أنك خائن، كاذب... أنت أناني آدم، أناني.

استدارت تنظر حولها بعينين تائهتين عندما لم يأتها رد، تصرخ بكلّ ما تبقى لها من طاقة: أجبني، قل شيئًا، أعطني أيّ مبرر.

ولكنّها أدركت أنّ لا أحد هناك ليجيب، لم يكن سوى سراب واختفى عندما اقتربت، سراب كسراب أوهام حبّه الزائف وقد تبخر عندما ظهر كلّ شيء أمامها، حقيقة ليست كاملة؛ فكثيرٌ من الحلقات مفقودة لن يستطيع ربطها سواه.

انتبهت لرنين هاتفها، يدها المرتجفة بالكاد تحمل الجهاز، ردت بكلمات يعتريها الخواء، واستقبلت خبرًا جديدًا يزيد صدمتها وجعًا، يؤكد لها أنّ الوقت قد فات، وانتهى اللوم والعتاب قبل أن يبدأ، فلقد قرر الهرب أسرع مما تخيلت.

....

صورة ضبابية، يقف في مكان مهجور لا يدري كيف وصل إليه، الشوارع حوله ضيقة، كئيبة، لا يستطيع رؤية أي شيء بوضوح، هناك خطر يقترب منه، يركض بلا توقف، يسمع أصوات أقدام تلاحقه، يقف منهكًا، يضع يده على صدره محاولًا تهدئة دقات قلبه المتسارعة، يلتفت للخلف، يراهم وكأنّهم أشباح بوجوه مخفية يتقدمون باتجاهه، يتحرك بسرعة، وكلما حاول

الركض، سمع أصوات الخطوات خلفه تقترب، ونداءات باسمه لا يعرف مصدرها.

"آدم"

يحاول الاختباء بأحد المباني المهجورة، ولكنّه يجد كلّ الأبواب مغلقة، الجدران تضيق كلما تقدم في أحد الطرق، الحوائط تقترب من الانهيار فوقه، يتسلق أحد السلالم المتعرجة بإنهاك، كلّ الأماكن مغلقة، لا حل سوى السقوط على الأرض أو الاستسلام لقدره الذي يلاحقه.

همسات بجوار أذنه لا يستطيع فهمها، تحاول إيقاظه من غفوته، لكنّها تزرع في قلبه خوفًا لا يطاق، يخشى فتح عينيه؛ فيجد نفسه ما زال في ذلك المكان المفزع؛ فيعود ويستسلم للنوم مرة أخرى.

....

تستند على الزجاج الشفاف لغرفة العناية المركزة، تراه على بعد أمتار يرقد على السرير الأبيض الحديدي، أنبوب التنفس يربط أنفاسه بالدنيا، جهاز مراقبة القلب يُثبت أنّه مازال على قيد الحياة، ولكن دون أن تتواصل روحه مع الحياة، شاشته تعرض رسمًا بيانيًا متعرجًا ترتجف معه أوصالها، كلما شعرت أنّ خطه ربما في لحظة يصبح مستقيمًا، إنّه الطريق الوحيد الذي يدعو الجميع أن يظلّ متعرجًا، تصدح دقاته المتقطعة برتم رغم رتابته إلا أنّه يطمئنها.

وضعت كفها على الزجاج الذي يفصلها عنه، وكأنّها تحاول لمسه، لم تغفر لها دموعها التي ترجوه أن يعود، لم تشفع لها نبضات قلبها التي تسابق الأجهزة في محاولتها البائسة أن تبثه من روحها لتهبه مزيدًا من الحياة، تتوسل بعينيها ربّ السماء أن ينجيه فلا تُحرم من وجوده، لا تستطيع استيعاب أنّ آدم الذي كان يملأ الدنيا بهجة ونشاطًا، بات الآن يبحث عن الحياة بين الأسلاك.

_ آدم، ما زال أمامنا الكثير، لا تتركني.

لم تشعر بمودة التي تقترب منها بخطوات ثابته ومشاعر متخبطة عبر ممر المستشفى خافِت الأضواء، وقفت بجوارها تنظر إليه هي الأخرى لا تعرف أتحزن عليه أم على نفسها؟ أتبكي الآن حاله أم تلومه على هروبه في هذا التوقيت بالذات ولن تستطيع أخذ أبسط حقوقها منه، العتاب!

نظرت للواقفة بجوارها لا تشعر بوجودها، تتأملها وتحفظ تفاصيها رغم معرفتها السابقة لها، تبحث عن كلّ مختلف فيها عنها، ربما أحبّها لشيء لم يجده عندها، كانت ذات جمال هادئ، ملامح عربية تميزها حتى في لون بشرتها الحنطية، عينان عسليتان رغم أنّ الدموع قد أنهكتهما، إلا أنّهما ما زالتا تنافسان عيون المها جمالًا، جسد يبدو عاديًا بجوارها، ولكنّها لا تنكر أنّ بكلّ تفاصيها تشع جاذبية.

_ أتحبينه لهذه الدرجة؟!

التفتت إليها صبا تمسح دموعها على استحياء، ودون أي حديث همّت بالمغادرة، أوقفتها مودة قائلة: انتظري من فضلك.

وقفت بتردد من موقف لم تحسب له حسابًا منذ أن عرفت آدم، أغمضت عينيها تعطي لأنفاسها فرصة الانتظام، وعادت تنظر إلى زوجته بحسرة وقالت: آسفة.

_ عن ماذا بالتحديد؟

_ لم أكن أرغب في أن تعرفي أمر زواجنا أبدًا، لم أرد إخبار المستشفى بأنّني زوجته، ولكن كان يجب ملء البيانات.

ابتسمت مودة بسخرية وقالت بحروف تحاول الظهور بكبرياء من خلف الحسرة: هل تتخيلين أنّني عرفت بوجودك من المستشفى؟! أنا لم أسأل من الأساس سوى عن رقم الغرفة.

حركت رأسها بعدم فهم قائلة: ماذا تقصدين؟

_ يبدو أنّ فاعل الخير الذي أرسل لي رسالة بزواجكما لا يعلم بما حدث، وأصبحت معلومته بلا أي فائدة.

خرجت من هدوئها المستعر وبصدمة قالت: فاعل خير آخر! أم فاعلة خير أرادت أن تكمل انتقامها ولم يكفها ما حدث.

بإصرار قالت: أريد أن أعرف كلّ شيء.

_ ألا يهمك أن نطمئن عليه أولًا؟!

_ سأفهم والآن.

_ ألا تأخذكِ به الشفقة وتسيطر عليكِ لبعض الوقت مشاعر العِشرة لتسألي عن قلبه الذي خذله الجميع؟! لقد رفض استيعاب الخيانة ممن آمن لهم على حياته وأسراره، ماذا تريدين أن تعرفي بعد أن استسلم عقله لغيبوبة يسبح فيها بين الحياة والموت؟! ونقف نحن الآن لنتحاسب على من سيدفع فاتورة سنوات عمره!

_ صدمته الخيانة؟! أليس هذا ما فعله معي؟! ألم يخونني هو الآخر؟!

_ كيف تتحدثين عنه بهذه الطريقة بعد كلّ سنواتكِ معه؟! كيف لم تعرفيه وأنتِ زوجته وأم ابنه.

_ لقد اكتشفت اليوم أنّني لم أكن له سوى خادمة ترعى طفله، الكلّ قريب منه إلا أنا، المخدوعة الوحيدة والجميع في حرملك السلطان يعيش في رعايته وأمان وجوده.

_ آدم لا يخون.

ضحكت بقهر تحرك رأسها رافضة كلامها، لا تستوعب رد فعل الواقفة أمامها تدافع عنه ببسالة، وقالت: واضح أنك لا تعرفين شيئًا.

_ بالعكس أنا أعرف الكثير، ربما أعرف كل شيء.

****

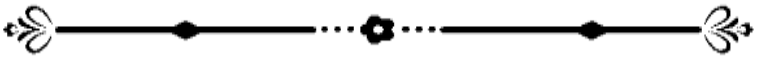

الفصل الثاني

صبا:

بدأ الحبّ كزهرة برية ذات أريج ناعم تفتحت في قلب أغلقته صعوبة الحياة، لم تكن حكاية عابرة، كان حبًّا عفيفًا، يغبطه كلّ من يشاهد فروعه التي تتزايد يومًا بعد الآخر في قلبيهما، قدّم روحه وإخلاصه لها على طبق من الوفاء، كانت جمالًا يفوق الوصف، نجمة من نجمات هوليود تنازلت لتعيش معنا في الشرق، حضورها سكينة له، وحديثها سيمفونية حالمة تحمله فوق سحاب من العشق، ذات عينين خضراوين رغم أنّها من الصعيد، فلقد ورثت من والدتها الأجنبية الجمال عدا لون البشرة الذي أخذته من والدها؛ لتتميز بملامحها عن غيرها من بني قبيلتها، طموحها بلا حدود، وأحلامها لا تتوقف.

كان آدم في السنة الأخيرة من كلية الحقوق عندما التقى بها، لتوها بدأت مشوارها الدراسي في الكلية نفسها، وعلى أرصفة الجامعة تلاقت العيون، لاحظ حيرتها مع أول أيامها الدراسية، ودون أن يشعر وجد نفسه في محرابها يسعى، هو الذي قاوم مرارًا وتكرارًا الحبّ، هو الذي سخر من القلوب التي عرضت عليه دون أي قيود أو حدود، طاف في عينيها منذ أول لقاء، يساعدها، يلبي طلباتها قبل أن تصرّح بها؛ فتقبل على استحياء،

لم يكن الحبّ في حسابات مستقبله، ولكنّها بعنفوانها حركت قلبه عن سبق إصرار وترصد.

مرت الأيام وتحولت لقاءات الحرم الجامعي من مساعدات بسيطة إلى مقابلات في حرم الحبّ، تتخللها أحاديث عن الحياة، المستقبل، والأحلام في أمان العشق، لمسات مختلسة عن عيون المارة والعابرين في الطرقات كانت كافية لتلهب بين الحين والآخر جذوة الحبّ في قلبيهما، خمسة أعوام كان بالنسبة لها المصباح السحري لأفكارها وأحلامها حتى وابتسامتها.

عندما تخرجت من الجامعة كان قد بدأ مشواره العملي بالفعل، يسعى جاهدًا لبناء مستقبل يليق بها وهي ابنة الحسب والنسب، لا يرى الحياة إلا بجانبها، ولا يحلم بغدٍ إلا وهي فيه، تقدم لخطبتها، ولكنّه صُدِمَ بواقع ليس له علاقة بأحلام الشباب وقصص الحبّ الوردية، واقع بعيد عن وعودها بألا تكون إلا له وإلا لن تكون!

فجأة انقلبت أحلام الحبّ الأسطوري إلى سنوات عجاف، حُرِمَ المحبان الارتواء من نهر العشق الذي حرّمه والدها عليهما إلى الأبد، وضع لهما جدارًا عازلًا، أغلق كل سُبل التواصل بينهما، صادر منها الهاتف الخاص بها، منعها الخروج من المنزل، وكلما حاول التقدم لخطبتها لم يلقَ سوى الرفض الذي يحتدّ ويُزيد من إصرار والدها عليه، ذلك الرجل الصعيدي ذو المستوى الاجتماعي المرتفع والعائلة المقتدرة، لم يمنح ابنته فرصة الدفاع

عن حبّها، لم يعطها أي حق للتعبير عن أسبابها ونظرتها لمستقبلها معه، اختلاف التقاليد والمجتمع جعلت والدها يتشبث برأيه.

ومع رفضها كلّ خاطب يتجرأ ليطلب الزواج منها، بدأ الشك يساور الرجل الصعيدي، ليغرس سكينًا جديدًا في قلب ذلك الحبّ، فلقد لعب الشيطان في عقله، تصوّر أنّ رفض ابنته الزواج من آخر لأسباب تجاوزت حدود الحبّ العفيف، أسباب هيَّأها الشيطان في عقله وتملك منه، قرر في لحظة قسوة وبدائية الكشف على عذريتها، انهارت الفتاة أمام اتهام والدها الذي لم يرحم صدمتها، أقسمت له أنّها بريئة، وأنّه أبدًا لم يهن يومًا جسدها؛ ليطمع فيما هو أكثر من هذا الحبّ البريء، كان إصراره طعنة لكرامتها ترمي بها في دوامة من الخزي والعار، تخرجها من بحر الحبّ الوردي إلى الأبد فترميها على شاطئ من الرمال الحارقة.

انقطعت أخبارها عن آدم، حاول الوصول إليها، ولكن بلا جدوى، كاد يجنّ وهو عاجز أن يُكسبها الأمان الذي لطالما سعى أن تشعر به بقربه، حتى اتصلت به صديقتها المقربة والتي كانت من البلد نفسه؛ لتخبره أنّ حبيبته بالمستشفى وقد قررت إنهاء حياتها، ساعدته ليراها للمرة الأخيرة، وهي راقدة بين الحياة والموت، شاهدها من بعيد دون أن يجرُؤ على الاقتراب في حضرة العائلة التي تملأ المكان، يبكي الجميع شباب الفتاة التي قررت في لحظة تهور إنهاء دقات قلبها التي تنبض باسمه.

أنفاسه تتسارع، تكاد تنقطع مع كلّ صرخة تصل إلى مسامعه من إحدى قريباتها، والدتها تزداد انهيارًا أمام حديث كلّ طبيب يؤكد أنّها لحظاتها الأخيرة، والدها يجلس ممسكًا برأسه نادم على تصرفه البدائي في حقها، وفي لحظة، ازداد المشهد سوداوية ولم يعد أي شك أو احتمال للعودة، فلقد أيقن المحبّ أنه ليس هناك معنى آخر سوى أنّها النهاية، ربما اعتقدت أنّها بذلك ستكون معه في الجنة! ولكن الحقيقة أنّها رحلت بلا وداع ولا أي احتمال للرجوع.

ظلّ سنوات يزور قبرها، يقف أمام الشاهد المكتوب عليه اسمها في صمت، يُحمل نفسه ذنب ما حدث، مكسور القلب فاقدًا للرّوح، يروي لكلّ من يقابله حكاية حبّه لـليال الذي لم يكتمل، وقلب مات قبل أن يحيي.

....

مسحت مودة دموعها التي لم تستطع منعها، فالرّوح غالية فهل كان حبّها له أغلى من روحها؟! وقالت بدهشة لا تخلو من الغيرة رغم الألم: ماتت! اسمها ليال! من أنتِ إذًا؟! وكيف لكِ أن تعرفي كلّ تلك القصة وأنا زوجته لا أعرف عنها أي شيء؟!

_ أنا، شاهد عابر ومرسال أخير في القصة، صديقتها التي حفظت الحكاية عن ظهر قلب، كتمْت السر لسنوات، ولكني لم أجعله ينتهي على أطراف المقابر حيث دفنت الأحلام!

_ لا أفهم شيئًا، كنت أسألك أنتِ عن قصتكِ معه، وقد رأيت بعيني عقد زواجكما! أريد أن أفهم، ماذا حدث قبل أن يصل إلى هنا بتلك الحالة؟ فأكتشف قصة أخرى لم تكن في الحسبان!

وقبل أن يأتيها الرد الذي ربما يؤجج نيران الغيرة بداخلها أكثر مما هي فيه، كانت أجهزت الإنعاش تصرخ بأصوات غير المعتادة، وفي الوقت الذي كانت تحاول فيه صبا التحدث مع طاقم التمريض المنتشر داخل الغرفة وخارجها، وقد تحولت فجأة إلى خلية نحل، الجميع يتحرك بلا توقف، وقفت مودة بذهول تختلط بداخلها مشاعر من الحسرة والخوف والقلق.

اقتربت أخيرًا من العازل الزجاجي، وقفت بجوار صبا التي لم تتردد دموعها عن السعي حول عينيها، لم يكفِ دعاؤها له كل لحظة، سواء بهمهمات بينها وبين ربها لا يستطيع أحد فهمها أو حتى بصوت مسموع وكأنّها تريد أن تصرخ به ليصل إلى السماء، تراه بين الأجهزة في حرب يصارع فيها الموت، فاض الكيل بمقاومتها لتخونها دموعها لأول مرة من أجله لا من أجل نفسها، تقاوم لآخر لحظة؛ فلا تريد أن تحدث حرب بين دموع الحبّ والخيانة على وجنتيها، أما داخل الغرفة كان الصراع من أجل البقاء هو سيد الموقف، وكأنه فجأة استسلم للرحيل بعدما هُيّئ الجميع لذلك.

حرك الطبيب رأسه لزميله أنه لا فائدة وهو يقاتل الموت بيديه على صدر آدم.

"ابتعدوا"

صاح بها وهو يمسك بكلتا يديه جهاز الصاعق القلبي الذي استجاب بوميض سريع، لم يكتفِ به وأخذ يضغط بكل قوته لينتزع منه الحياة، ينتفض الجسد الهزيل؛ فيرتفع عن السرير، خط الشاشة مستقيم فلا نبض قرر أن يستجيب.

صرخت صبا باسمه وهي تقتحم الغرفة بعدما عجز جميع من بها من منعها الاقتراب منه، تحاول أن تلمس كفه براحتيها لتسقيه من دموعها، صاح الطبيب بها أن تبتعد فجذبتها إحدى الممرضات، أعاد ما فعله عدة مرات وعيناه لا تفارقان الشاشة.

عمّ الصمت الغرفة وهو يقرر الانسحاب من المعركة، يهرب الأمل مع كل ثانية تمر، تتوسل إليه صبا ألا ييأس ويستمر، سيعود للحياة هي واثقة، عادت لتلمس يديه برهبة وهي تقربها من شفتيها لعلّها تكون الشفاء، تدعو الله بصوت مرتعش تسمعه مودة الواقفة على باب الغرفة، تتشبث أصابعها ببعضها لا تتحرك، ارتدت صبا إلى الوراء بفزع وكأنها تخشى فرار روحه، جحظت عيناها برعب ربما ترفض أن تكون هذه هي النهاية، التصقت في الحائط ينتفض جسدها كما ينتفض جسده إثر الصدمات.

ظهر نبض ضعيف على الشاشة، يتحرك بخجل ليعود يعبر طريق الحياة على استحياء معتذرًا عما سببه من قلق وخوف، تنفس الجميع الصعداء، مسح الطبيب جبينه الذي تصبب عرقًا رغم برودة الغرفة وهو يقول بانتصار: يستجيب.

جلست صبا على ركبتيها تدفن رأسها في كفيها بانهيار دون أي كلمة؛ فلم تعد تقوى حتى على الدعاء.

اقتربت منها الممرضة تحاول تهدئتها ومساعدتها على الوقوف بعدما فقدت السيطرة على قدميها، تحرك الطبيب باتجاه مودة التي ما زالت مكانها، وكأنّ جسدها وكلّ حواسها فقدت الإحساس عدا عينيها اللتين تمران على جميع الوجوه بذهول، لتستقرا في كل مرة عند صبا، وقد تأكدت أنّ حبّ تلك الفتاة له يفوق حبّها، تكاد تجزم أنّه لم يستجب للصعقات ولكنّه استجاب للمسات شفتيها على بشرته الباردة؛ فبثت فيها حرارة الرّوح من جديد.

وقبل أن يغادر الطبيب قال: سيبقى تحت المراقبة، لا نعلم مدى استقرار الحالة واستجابتها.

ألقت عليه نظرة أخيرة صحبتها دمعة لم تعد بحاجة إلى كشف معناها، أخذت نفسًا عميقًا أخرجت مع زفيره كلّ ما تبقى بداخلها من حيرة، حمدت الله بقلب مشتت أنه عاد؛ فحبّها له وعشرته الطيبة أقوى من إحساس الغدر الذي يتملكها.

****

الفصل الثالث

ممرات مظلمة ليس لها نهاية، أخيرًا وصل إلى آخرها، باب مفتوح على مصراعيه، نساء يجلسن على كراسي عتيقة، وجوههن مغطاة بحجاب شفاف، لا يستطيع أن يرى ملامحهن بوضوح، كلّ واحدة تمسك بشيء وراء ظهرها، كلما حاول التقدم من إحداهن أتاه صوت من داخله يحذره ألا يقترب، يعود إلى الوراء، يحاول الاقتراب من أخرى، يشعر بشيء آخر يعيق تقدمه ويمنعه، ينظر إلى الخلف، امرأة تقف وحيدة، لا يستطيع رؤية وجهها، يقترب منها، يحاول لمس يدها، تختفي تمامًا، ويبقى وحيدًا.

وحيدًا في أحلامه، وحيدًا في واقعه، سيظل وحيدًا مهما حاولوا إنقاذه، وحتى وإن حاول أن يفتح عينيه ليرى واقعًا لا يريده.

....

عادت إلى المنزل مجهدة الجسد والعقل، موجوعة الفؤاد، ألقت بنفسها على الأريكة تنظر حولها بشرود لا تدرك كيف وصلت، كلّ ما يدور بعقلها هو أنّ من أضاعت عمرها معه ليس كما تعرفه، لم تتصور يومًا أنّ من ينام معها على فراش واحد يخبرها احتياجه لها وشوقه لأحضانها، متعدد العلاقات!

انتبهت إلى لعبة طفلها على الأرض، بعد كبت استمر لساعات لا تعرف عددها، انهارت دموعها أخيرًا، كانت تحاول الصمود ولكن تحطم ذلك السد الذي بنته أمام مقلتيها، صدى نحيبها بدأ يجوب أرجاء المنزل الفارغ من البشر ليعود ويرتد إلى قلبها؛ فينتفض جسدها بحسرة لصوت الخذلان، كل تلك الأعوام تخدعها براءة ملامحه وطيب كلماته، غشاوة الحبّ كانت تضلّل عقلها؛ فاقتنعت أنّها تملأ قلب زوجها، تعترف أنّه جميل العِشرة، هين، لين الطباع، كيف استطاع أن يخلط بين كلّ تلك التناقضات؟!

مسحت بكفيها على وجهها، التقطت هاتفها بوهن لتتصل بوالدتها.

_ الحمد لله أمي حالته مستقرة... ما أخبار نور؟ سأحدثه بعد قليل... لم أستطع المرور اليوم، لا أريد أن يراني بهذا الشكل، تحملينني هذه الأيام حتى تستقر حالة آدم... أخبريه أني سافرت مع والده لبضع أيام في أمر ضروري... شكرًا أمي.

أغلقت المكالمة وأغلقت عينيها معها، غابت عن الدنيا دون أن تشعر، بعدما أراد جسدها أخذ هدنة لبضع ساعات تبدأ بعدها البحث عن أسرار من حمل لها المودة والرحمة وكان لغيرها السكن والسكينة!

لم يعطها النعاس مهلة طويلة للراحة، بعد أن آلمها النوم على الأريكة دون أن تشعر، تحركت بإرهاق وكسل متجهة إلى غرفتها، ولكن بدخولها عادت لها الذاكرة التي توقفت لبضع سويعات، رائحته تملأ المكان، أنفاسه في الغرفة وكأنه كان معها منذ ثوانٍ، لم تستطع الهروب من صوته الذي يهمس في

أذنيها بكلمات حارة تعطيها وعدًا بالخلود، تسافر في عروقها حتى تصل إلى قلبها بعذوبة، أغمضت عينيها بشدة، وضعت أصابعها على أذنيها تحاول التصدي لهمساته، ولكنّها كانت أقوى من الصمت، تنبعث من داخلها لتوقظ عقلها الذي حاول الوقوف في وجه مشاعرها المتخبطة؛ فجعلها تصرخ.

"كاذب"

ولكن بلا فائدة؛ فهو دائمًا يجيد المراوغة، بارع في الجدال، حتى وإن كان وجوده مجرد وهم.

دخلت دورة المياه بتثاقل تحمل أوزار الأيام التي عاشتها معه وذكرياته فيها، انتزعت ملابسها التي لم تبدلها منذ صباح أمس، ألقت بها على الأرض بإهمال، تلقي معها كل أفكارها المرهقة كإرهاق روحها المجروحة، انهار جسدها في حوض الاستحمام الذي ملأته بالمياه الباردة رغم برودة الجو، ربما تُهدئ من نيران قلبها المحترق، ولكنّ روحه أبت أن تبتعد عنها حتى وإن كانت في المكان الأكثر خصوصية، وكيف تنساه للحظات وتفكر في الراحة وقد كانت أنفاسه دائمًا هي الدفء في البرد، والراحة عندما يشق عليها التعب؟!

لم تتركها التفاصيل تهرب من ذكرياتها معه! كيف وقد شاركتهما الكثير من الليالي التي لا تُنسى، لمساته تطارد جسدها فتحاول بعنف إزالتها بالماء، أنفاسه تحرق عنقها وهو يهمس بكلمات أدمنتها؛ فتتوه في عالم عاشت فيه

ملكة بين يديه، تغمض عينيها لعلّ ذكرياتهما تختفي من أمامها، ولكنّها تتسابق أمام ظلام جفنيها تتحداها، احتضنها بشدة، أبى أن يتركها.

انتفضت مفزوعة تنظر حولها تبحث عنه في الزوايا؛ فلم تجد سوى قطرات الماء الهاربة من رجفتها، كيف يمكن للمكان أن يتجاهل الذكريات وقد كان شاهدًا على كثرتها؟ هل تستطيع تجاوز كلّ الليالي التي عاشتها سعيدة بقربه وتبحث عن سبب للخيانة؟ وماذا ستفعل إن قرر الرحيل للأبد قبل أن تعرف لماذا فعل ذلك؟

وقفت أمام المرآة تتأمل ملامحها المرهقة، ترفض الانصياع لرغبتها في الذهاب إلى المستشفى؛ فتعاقبه عندما لا تطمئن عليه، تسأل نسختها المنعكسة أمامها، هل البحث في أسراره سيكشف لها ما لا تستطيع تحمله؟ تتمنى لو عاد بالزمن إلى الخلف أيامًا، حيث كانت تجلس بجواره على الأريكة يشاركها أحد أفلامها المفضلة، طفلهما مندمج في الرسم على الطاولة أمامهما، ملامحه البريئة التي تشبه ملامح والده غارقة في الألوان المبهجة، كيف تحولت لحظاتهم السعيدة فجأة إلى كابوس تتراقص فيه الحقيقة على فراش الموت؟!

....

بخطوات مترددة اتجهت إلى المستشفى حيث ينتظرها بلا وعي، تحاول تمالك روحها التي أوشكت أن تتهاوى منها، انتصر قلبها ليطمئن عليه، وها هو ما زال هاربًا في عالم بعيد عنها لا تستطيع الوصول إليه لمواجهته بكلّ ما عرفته، ورغم رغبتها الصُراخ في وجهه، ينفطر قلبها عليه! كيف تجرُؤ على عتابه الآن حتى وإن عاد؟

توقعت أن تجد صبا بجواره كأمس، تبكيه وتتوسل الأطباء فعل أي شيء، شاهدت بعينيها كم تحبّه؛ بل تعشقه وتذوب في روحه، جهزت الأسئلة، رتبت لقاء المواجهة بينها وبين من سرقت قلب زوجها واحتلت عقله، لم يعد للإنكار داعٍ، فلقد رأت كيف لروحه أن تشعر بها، ولكنّها لم تحضر بعد! ليس لها أثر في المستشفى، تأخذ مكانها أخرى وكأنها تنتظرها، مساعدته الأمينة وصندوقه الأسود، لغز آخر في حياته لطالما فضّلت التغاضي عنه مقتنعة بأنّه لا يضرها بشيء.

اقتربت منها كأسد وجد فريسته التي تستحق أن تشبع جوعه، مؤكد عندها كلّ الأسباب لما حدث حتى خيانته، وبلا تردد، وبمجرد أن تلاقت النظرات، قالت: عهد، ما الذي حدث ليصل إلى هذه الحالة؟ واثقة أنك تعرفين كلّ شيء.

نظرت إليها في صمت بنظرات فارغة لم تجد بها أي معنى تلتقطه؛ فصاحت والكلمات تتدفق منها الغضب، قائلة: انطقي، ماذا حدث؟

جلست عهد ببطء على أحد الكراسي الموجودة في الممر بجوار الحائط، وما زالت تنظر إلى مودة بشرود من خلف دموعها، وجهها الشاحب ونظراتها المفزوعة تخبرها أنّ هناك شيئًا ليس من السهل الإفصاح عنه؛ فصرخت بها مرة أخرى بحروف مرتجفة: تحدثـــــي.

أخفت وجهها بكفيها تكتم بكاءَها؛ فدفعتها مودة بكلتا يديها قائلة: ماذا تخفيـــــن؟

تفاجأت بصبا تظهر من العدم، مشحونة بالغضب، تصيح: ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟ يا لكِ من وقحة! كيف تَجرُئين على المجيء بعد كل ما فعلتِ؟!

_ لم أكن أتصور أن يحدث كل ذلك.

قبضت صبا على ذراعها وقالت بحقد: ابتعدي من هنا، لا أريد أن أرى وجهك.

وقفت مودة بينهما متجمدة الملامح، كلمات صبا كاشفة لشيء مرعب لم تعلمه بعد، شيء يحمل كارثة لم تتخيل حدوثها رغم كلّ شيء، ما حدث كانت عهد سببًا فيه! هذا معنى ما تراه، وبمفاجأة أشارت إليها باستياء قائلة: أنتِ من أرسل لي الرسالة؟!

قالت صبا بأسى: ليتها اكتفت بذلك.

_ لم أتخيّل أن يحدث له شيء.

_ بل تعمدتِ الانتقام منه بطريقة حقيرة، تعرفين جيدًا أنه مريض قلب.

_ أشارت مودة بيدها لهما أن يصمتا وقالت بصدمة: زوجي أنا مريض بالقلب!

_ وبضحكة منهارة وقفت على شفتيها تتألم، أردفت: أنتما تتحدثان عن آدم؟! الرجل الذي عشت معه لسنوات؟!

_ قالت صبا مشفقة عليها: مودة بالله عليكِ لا تظلميه، كان لا يريد تحميلكِ همومه ومشاكله، أراد لكِ ولطفله حياة مستقرة هادئة.

_ أجل، معكِ حق، خشي عليّ أن أعرف عنه أي شيء؛ فأتى بكما تحملان معه همومه من أجلي.

اقتربت ممرضة تنهاهن عن الفوضى والإزعاج الذي لا يليق بالمكان؛ فجذبت صبا عهد وهي تبعدها قائلة، إياك وأن أراكِ مرة أخرى، انتهى وجودك معنا فابتعدي بكرامتك.

_ لا... ستظلّ، وتخبراني أنتما الاثنتان كلّ شيء.

استمرت صبا في دفعها بعيدًا دون الاكتراث لحديث مودة، وكأنّها تتعمد إبعادها عنها، وهي تقول: لا تسمعي لها مودة، إنّها حقيرة، ستحاول تشويه صورته في عينيكِ بكلّ الطرق لتكمل انتقامها منه.

كانت عهد تبتعد استجابة لدفعات صبا تتبعها دموعها بلا توقف، تحرك رأسها بالرفض لا تقوى على الدفاع عن نفسها وكأنّ لسانها لم يستجِب لرغبتها في الرد؛ فقالت مودة:

- بالعكس، ستقول كلّ شيء دون تجميل الصورة كما تفعلين أنتِ.

تحدثت عهد بصعوبةٍ وحروف الندم تتسابق على شفتيها وكأنّها لم تعِ من كلّ ما يحدث إلا هذه العبارات التي لا تكفر ذنبًا ولن تعيد غائبًا: لم أتخيل أن ينهار كلّ شيء بتلك الطريقة، كيف لم يتحمل قلبه؟ لماذا هذه المرة وقد تعرض من قبل لأضعاف ذلك؟! لماذا يحملني ذنبًا لا أطيقه ويقلب عليّ ما فعلت؟

_ هيا، اذهبي واسعدي بنتيجة انتقامك، لقد نجحتِ ودمرتِ حياته، لا، بل أنهيتها إلى الأبد.

_ ليست النهاية، سيعود ويعاتبني، آدم سيسامحني، إنه خطئي الأول معه، أنا وهو كالسيف والدرع لا أحد يقوى علينا أبدًا.

_ والسيف طعنه في مقتل، تركه بالقرب من قلبه دون أن يضعه في غمده حتى أودى به في لحظة غدر.

انصرفت عهد دون أي كلمة أخرى فلم تعد تمتلك من عبارات الدفاع أيّ حرف، تجرّ أذيال الندم والخزيّ؛ فقالت مودة بسخريةٍ:

- حاربتِ حتى لا تستطيع التحدث، أبعدتها عني ببسالة.

لم يأتِها رد؛ فأردفت: ما الذي تخشين أن أعرفه رغم أنكِ تقصين عليّ ما لم أكن أعرفه؟!

- ردت بثبات: أخبرتكِ ما عرفتِه بالفعل؛ لأنّ هناك أمورًا لم يعد إخفاء تفاصيلها مهمًا يا مودة.

_ وهل تتصورين أني لن أحاول معرفة ما تخفينه عني؟!

_ لماذا تصرين على كشف أشياء إن تبدو لكِ تُسئكِ؟! ليس من مصلحتكِ معرفة المزيد؛ فلمَ النبش في دفاتر الماضي؟!

_ لأنّ ما خفي كان أعظم وعليّ معرفته، ليس الماضي فقط؛ بل الحاضر الذي أنتِ وعهد فيه، الجميع حاضر إلا أنا غائبة ولابد أن أحضر.

****

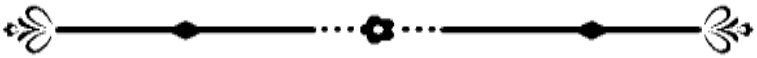

الفصل الرابع

صبا:

خمسة أعوام أخرى لم يتأثر حبّ ليال في قلبه برحيلها، يزور قبرها باستمرار، يجدد عهود الحبّ، يهدي قبرها الزهور يوم ميلادها كلّ عام، يتعامل وكأنّها ما زالت تشاركه الأحلام، كلما جاء مدينتنا لأمور لها علاقة بالعمل يزورها، سنوات أرى ذبول روحه ولا أستطيع فعل شيءٍ له، أحببته دون أن يدري، حاولت كثيرًا السيطرة على مشاعري، ولكن تأثيره كان أقوى، ربما كان يشعر ولكنّه فضّل عدم المواجهة للحفاظ على صداقتنا، ربما لأنّ الصداقة تدوم أكثر من الحبّ، لا تتأثر باختلافات في الآراء والأفكار.

ظلّ يحدثني عن ليال وذكرياته معها، وكأنّه يتعمد إخباري بهذه الطريقة أنّه لا مكان لي في قلبه، لم أيأس، كان لدي أمل أن يأتي اليوم الذي يشعر فيه بي، أن يراني بعينين رآها بهما لأنّي أستحق وليس لأنّني بديل عنها، حاولت الوصول إلى قلبه بكلّ الطرق، ثقته بي كانت تتزايد مع الوقت، بدأ يعتمد عليّ في أمورٍ كثيرة وخاصة أني أعمل بالمحاماة في بلدتي، لم أرَ شخصًا يتعامل بكلّ هذا الإخلاص في كلّ شيء مثله، إخلاصه في العمل كإخلاصه في الحبّ والصداقة.

جاء اليوم الذي قررت فيه أن أخبره الحقيقة كاملة، كنت واثقة أنّ مصارحتي له ستكون نقطة فارقة في علاقتنا، قررت كشف ما أخفته عنه ليال لسنوات، ربما أستطيع أن أكسب ما لم أكتسبه عندما أُثبت إخلاصي، هكذا كنت أحسبها، يجب ألا أخفي عليه شيئًا مهما كان، ولكنّه اختفى بعد مصارحتي له وكأنّه لم يكن له وجود، ابتعد في صمت وانقطع التواصل بيننا لفترة طويلة.

كان الأمل يتسرّب من قلبي، هل خسرته بهذه السهولة؟ حرمني حتى من مكالماته السريعة، مرّ أكثر من عام حتى ظهر مرة أخرى أخيرًا، وكأنّ شيئًا لم يكن! تجاهل كلّ ما أخبرته له آخر لقاء، وعاد شخصًا آخر غير ذلك الذي عرفته، لم يعد مُحبًّا لدرجة الزهد في ملذات الحياة التي يجيدها، عاد أكثر انطلاقًا وحرية بعد أن تحرر من ذنب حبّها.

ذلك اليوم احتاجني في أمر يخص إحدى القضايا داخل مدينتي، احترمت رغبته وتعاملت بعملية على أمل أن يأتي اليوم الذي أكسب فيه ثقته مرة أخرى، أن أُثبت ولائي الذي أَثبته بالفعل ولكنه لم يكن كافيًا، عاد حلمي الفوز بقلبه، ولكن سرعان ما ذهبت كل آمالي عندما عرفت أنه تزوج خلال تلك الفترة، وكأنه ينتقم لنفسه على سنوات قضاها في حبّ زائف وتضحية بلا فائدة.

....

_ تزوجني لينسى؟!

_ أَحبكِ مودة، لم يرَ من هي أنسب منكِ لتكون أمًا لأبنائه.

_ أُمًا فقط لا غير، ليس بقلبه مكان لي.

_ لماذا لا تتغاضين عن كلّ ذلك الآن، وتريحين عقلكِ وقلبكِ حتى يستطيع الدفاع عن نفسه أمامكِ.

_ وإذا طال الأمر، أو حتى لم يعد؟

_ أراكِ قاسية لدرجة مرعبة، لماذا لا تؤثر فيكِ حالته؟ كيف لا تخشين فراقه؟

_ أنا؟! أنا لا أخشى فراق آدم وقد كان لي الزوج، الأب، الأخ والحبيب، أتتصورين أنني لا أخاف على والد طفلي؟! هل هناك أم تتمنى أن يعيش طفلها يتيمًا؟! مهما كنتِ تحبينه صبا، لن تفهمي ما أشعر به الآن وهذه الحرب الدائرة داخلي.

ألقت عليه نظرة لوم قبل أن تفقد ما تبقى من ثباتها أمام غريمها، وغادرت.

....

أصبح منزلها خاويًا على عروشه، كان هو الجذر الذي يستند عليه كلّ شيء، والآن الفروع تتهادى والأغصان تنازع الهواء، فراغ تمضي فيه أيامًا لا تعرف نهايتها، اتجهت إلى غرفة مكتبه بعد أن جعلتها الصدمة في المرة الأولى لا ترى إلا عقد زواجه فقط، لمَ لا تكتشف الحقيقة التي وضعها أمامها وغفلت عنها؟

جلست على كرسيّه تنظر إلى الدرج الذي ما زال مفتوحًا منذ اقتحمته ورأت الورقة الموثقة باسمه زوجًا لغيرها، تسخر من تلك الثقة التي جعلته يضع في منزلها أهم أوراقه وأسراره دون أن يخشى اكتشافها ولو بالمصادفة، أغمضت عينيها بإرهاق، وضعت يدها بعشوائية كأنّها تسحب ورقة في لعبة حظ، تنتظر ما الذي سيظهر لها من صندوق العجائب.

صور قديمة له تجمعه مع شقيقته، صور له في طفولته مع نساء ورجال لا تعرفهم يبدو أنهم من العائلة، أشخاص يتكرر ظهورهم في الصور، سيدة مؤكد ليست والدته فهو يتيم الأم منذ ولادته، صور له مع والده، تعرفه جيدًا، أمامه في برواز على المكتب منذ تزوجته، صورة شاهد لقبر أيقنت لمن يكون دون أن تحاول قراءة الاسم، صور مع فتيات، عهد، صبا، أخريات لا تعرفهن، ولكنّها عرفت إحداهن جيدًا دون أن تراها من قبل، لم تبالغ صبا في وصفها، ليال، ذات البشرة الحنطية والعينين الخضراوين، الصورة بالجامعة، خلفهما الميزان شعار كلية الحقوق يطلّ بوضوح، كلّ شيء يبدو عاديًا إلا نظراته لها، رأت في عينيه ما لم ترَه من قبل، وكأنّها تتعرف على رجل آخر غير زوجها، ابتسامته مليئة بإحساس لم يكن لها يومًا!

كيف كان يخفي هذا الوجه عنها طوال هذه السنوات؟! نبضات قلبها تتسارع، أنفاسها تحارب الهواء، تمسك بيدها عنقها تشعر أنّها تختنق، مشاعر متناقضة بداخلها، الغضب، الغيرة، الخيانة، القهر، الخذلان، تسللوا إلى قلبها واحدًا تلو الآخر بكل هدوء، ليتركوا بداخلها غصة لن تزول،

تؤكد لنفسها أنّ لزوجها لغة في الحبّ لم تعرفها ولم يتحدث بها معها، هل كانت دومًا لا تفهم لغته؟ عمياء لا ترى ولا تشعر، كيف لم تتوقف أمام نظراته يومًا واكتفت بهمساته في ليالي العشق؟

سقطت الصورة من يدها وغادرت منسحبة بهدوء من معركة هي الخاسر الوحيد فيها.

....

لا تعرف كم يوم مضى وهي حبيسة غرفتها، تغرق بين أغراضه التي ملأتها الحسرة على بعده، تعاتبها وتنتظر منها إجابة لم ولن تحصل عليها، لا تقوى على الذهاب إلى المستشفى، تتعلق كل يوم بصوت الطبيب على الطرف الآخر من الهاتف وهو يؤكد لها أنّ حالته مستقرة، تُطمئن نفسها بكلمات عابرة عبر الأسلاك، تَعد طفلها كلّ يوم بوعود لا تعرف صحتها:

"أنا في الطريق إليك، أنتظر أن ينهي أبوك أعماله ونحضر سويًا، فقط لا تتعب جدتك حتى نعود"

جلست على الفراش الذي يغص بصور زفافها ولحظات كانت تعتقد أنّها بالنسبة له أسعد أوقات حياته، تتنقل بين الصور المطبوعة وتلك المحفوظة في هاتفها، بعد أن ندرت الصور الفوتوغرافية مع مرور الوقت، وكأنّ التقاط اللحظات السعيدة بات أمرًا عاديًا سهل اقتناصه رغم أنها نادرة.

تتذكر كيف تعرفت عليه في أحد المقاهي التي اعتادت التردد إليها، مكان هادئ بالقرب من منزلها في طريق عودتها من الجامعة، كانت في السنة

الأخيرة كلية الآداب، ترى الحياة تفتح لها ذراعيها بمستقبل تستحقه، منطلقة بأحلام لا حدود لها، العمل والنجاح وبعده تكوين الأسرة، مجتهدة في دراستها ليس لها أصدقاء مقربون؛ فلا وقت يجب أن يضيع في علاقات عابرة ليس لها قيمة.

لاحظت أكثر من مرة أنه يتعمد الجلوس أمامها، تشرب فنجان قهوتها سريعة التحضير وتغادر في صمت يُسير استفزازه يومًا وراء الآخر، وبدأت تتأكد أنه يتعمد التواجد في موعد عودتها نفسه، تشك في تتبعه لها حتى تصل إلى منزلها، أصابها الرعب في البداية وهي تشعر أنّ هناك نظرات تخترق ظهرها وهو يسير خلفها كلّ مرة متعمدًا أن تشعر به، حاولت كثيرًا تجاهل الأمر، ربما هي المصادفة جعلته يشاركها الطريق، ولكنّ عقلها كان يصور لها الكثير من المشاهد، أحيانًا تخشى التحرش بها، أو أن يكون شابًا متلاعبًا يتخيل أنّه من السهل استجابتها لنزواته، تزيد خطواتها سرعة، ولكن وبمرور الوقت بدأ شيء في قلبها يهمس لها بمشاعر تدغدغ براءتها، تفرض عليها الانشغال بوجوده ومتابعته هي الأخرى.

تعودت ظهوره أمامها باستمرار، حاول معها كثيرًا أن تبادله النظرات، ولكن خجلها جعلها دائمًا تتهرب من نظرات عينيه المخترقة لعينيها تريد أن تفضح أفكارها، حتى بدأت خطواته في الاقتراب منها بجرأة، دون أن تشعر أعطته إشارة بالسماح! تجمّدت مكانها وهو يقف أمامها ذات يوم، سمعت صوته بنبرة هادئة يقول: معذرة، أريد أن أقول لكِ شيئًا.

انحبست أنفاسها، حاولت الابتعاد ولكن منعتها المفاجأة، عيناها ترى ملامحه عن قرب لأول مرة، لم يكن كما توقعت، به شيء جعلها لا تقاوم النظر إليه، شيء يأسرها دون أن تشعر. وجهه مألوف بطريقة غريبة، وكأنها تعرفه جيدًا، قريب منها رغم أنها المرة الأولى.

خليط من التوتر والانجذاب، ارتباك من نوعٍ لم تجربه من قبل، وفضولها منع المتبقي من إرادتها لتظلّ واقفة أمامه تنتظر ماذا يريد، بدا وكأنّه يحاول انتقاء الكلمات التي خرجت بحروف موزونة تحمل معاني طارت بها فوق السحاب حتى يومها هذا:

_ لقد كنت أراكِ كلّ يوم ولم تستطع عيناي إلا أن تتابعك، والآن، هل تقبلين أن أقابل والدكِ في أقرب وقت؟

وسط كلّ تلك الفوضى التي تعصف بعقلها، رنين هاتفها قطع الصمت وأخرجها من ذكريات لقاءاتهما الأولى، نظرت إلى الشاشة لا تحاول توقع المتصل الذي ظهر دون مجهود، اسم غاب عنها وسط كلّ الصراعات التي تلتهم عقلها، شقيقته خارج البلاد، مؤكد تريد الاطمئنان عليه بعد أن اختفى عن الحديث معها لعدة أيام.

أخته الكبيرة حنان، الوحيدة المتبقية من عائلته بعد أن توفي والده، تقيم بإحدى الدول الأجنبية مع زوجها وابنيها، تتواصل معه باستمرار دون

انقطاع، استجابت أخيرًا للرد على المكالمة بعدما استغرقت وقتًا في التفكير؛ فكيف ستخبرها حالة أخيها؟ وماذا ستفعل عندما تعلم ما حدث؟

_ مرحبًا، حنان.

أتاها صوتها على الطرف الآخر مغمورًا بالبكاء، تختنق الكلمات على شفتيها وهي تقول بحرقة: مودة، ماذا حدث لآدم؟ من تلك الفتاة التي ردت على هاتفه؟ كيف تُخفي عني أنه بالمستشفى؟

جاءت كلماتها سهامًا تخترق قلبها، لم تستطع إخفاء ارتجاف صوتها وهي تقول: كنت أنتظر أن تستقر حالته حتى أُطمئنكِ عليه، ما الذي بإمكانكِ فعله وأنتِ ببلد آخر؟

_ سآتي في أقرب وقت، لا أستطيع الانتظار هنا وهو بتلك الحالة.

أغلقت معها الهاتف وعادت لأفكارها ومشاهد حياتها المبعثرة حولها على الفراش وهي تقول لنفسها بسخرية: تخفين عني هاتفه يا صبا!

****

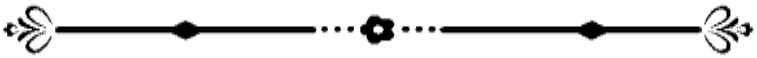

الفصل الخامس

رؤية مشوشة، يقف على قمة جبل شاهق، حوله فراغ لا نهاية له، السحب تتزاحم فوق رأسه، تقترب منه كأنّها ستسقط عليه، الرياح قوية، تصفعه من كلّ جانب، تحاول إسقاطه، ينادي بأعلى صوته، يصيح:

"أنا هنا"

كلماته تعود له كصدى صوت دون إجابة، يشعر أنّ الأرض تحت قدميه تتشقق، الجبل سينهار وكأنه لن يتحمل ثقل همومه، يحاول الهروب، ولكن لا طريق أمامه، الصخور تتساقط مدوية، يرتفع صوت دقات قلبه على صوتها؛ فيسد أذنيه بفزع، يظهر من بعيد ظلًا لشخص لا يستطيع تحديد ملامحه، ينادي عليه ليساعده ولكنّه لا يسمعه، يشعر بالعجز واليأس، سيظل وحيدًا في هذا المكان الموحش حتى الموت ولن يشعر به أحد.

يدٌ تحاول إخراجه من هذا الكابوس، نداءات باسمه تقترب منه تدعوه للاستيقاظ، كيف يرفض ويظلّ في وحشته وهناك من يدعوه للخلاص؟!

أنفاسه تتسارع، اليد نفسها تلمس صدره تعطيه الأمان حتى يطمئن ويفتح عينيه ولا يترك نفسه لتلك الأحلام التي تغتال سُباته.

....

ما زال جسده الهزيل المنهك يرقد بمفرده وسط الغرفة، مستمرًا في صراعه على البقاء، أصوات الأجهزة التي تعزف سيمفونية الحياة والموت على أوتار قلبه الهش لا تعرف إلى متى ستستمر في العزف.

موعد الزيارة اليومية التي يُسمح فيها بالاقتراب منه، رغم أنّها لم تحاول الاقتراب بعد، تنتظر ظهور إحداهن بجواره، خططت لاستجوابهن كلّاً على انفراد بعيدًا عن لهو الأخرى، ولكن واضح أنهما تجنبتا التلاقي، بسخرية أخبرت نفسها أنّ دائمًا توقعاتها ليست في محلها؛ فقررت ألا تنتظر العثور على صيدها مصادفة، ستسعى للوصول إليهن؛ لتشفي فضولها المزدوج برغبتها في كشف الحقيقة والخلاص من كابوس عشقه!

تفاجأت بوجه جديد يجعل المشهد أكثر عبثية، كانت صدمتها هذه المرة تفوق كلّ التوقعات، هل كان لتلك الدرجة لا يفرق معه سن أو شكل؟!

سيدة متواضعة المظهر، برفقة ابنتها العشرينية، تقفان أمامه تتوسلان الله بالدعاء من أجله، ولكن أيهما كانت من نصيبه؟ الفتاة الصغيرة التي ربما لو تزوج مبكرًا لأنجب أكبر منها، هل استغل الفقر والحاجة؟ أو كانت مجرد خطأ عابر صححه بالارتباط بها في مجتمع لا يغفر للفتاة مثلما يفعل مع الرجل! أم تلك المرأة التعيسة التي يظهر عليها السن الذي لم تعشه في رفاهية كمن هن في مثل عمرها، حتى أتاها هو يقدمه لها في ليالٍ خلسة من وراء المجتمع؟

لم تتقبل فكرة أن يكون وصل به التلاعب إلى هذا الحد، اقتربت منهما، ولكن توقفت الكلمات على شفتيها لا تستطيع الخروج وهي تخشى السؤال فتصدمها الإجابة، نظرتا إليها بخجل، مؤكد عرفتا أنّها زوجته، قالت المرأة بتأثر قبل انتظار أي كلمة من مودة: أسأل الله أن يمنّ عليه بالشفاء العاجل، وأن يخرج من هذه المحنة سالمًا معافى.

وبدون أي مقدمات ألقت مودة سؤالها بجمود:

_ من أنتما؟

ابتلعت السيدة ريقها وتبادلت النظرات مع ابنتها؛ فأشارت الفتاة إلى والدتها بأنّها من ستتحدث، مسحت دموعها التي زادت ملامحها وبراءة عينيها جمالًا، رفعت رأسها بكبرياء أدهش مودة، وبدأت في الحديث باتزان وثقة.

شذى:

عملتُ مع عم آدم، أقصدُ الأستاذ آدم منذ فترة، كنت ما زلت طالبة في كلية الحقوق، أحتاج أن أكمل تعليمي، بعد حدوث مشاكل مع والدي في عمله وضعف حالتنا الاقتصادية، لم أتخيل أن يقبلني في مكتبه المعروف بحجمه ومكانته، كانت محاولة ساذجة مني، خطوة أخذتها ولم يكن هناك شيء أخسره أو يجعلني أتردد في التجربة.

الغريب أنّ المحاولة نجحت، أنا الفتاة التي مازالت في الفرقة الثانية ولم أكمل تعليمي بعد، لا أعرف كيف تجرأت على طلب العمل في مكتب كبير ومعروف بهذا الشكل؟! لا أدري أهي براءة مني أم ذكاء، ولكن المهم النتيجة، أعجب الأستاذ بتلك الجرأة، تحمس لإصراري على النجاح حتى وإن كان بتهور، رحّب بوجودي وشجعني على الاستمرار في السعي والتحدي، عاملني كابنته، لا، كنت فعلًا ابنته، أبًا آخر يعوضني ما لم أجده عند والدي، لم أرَ منه إلا كل خير واحترام، تبناني بما تحمل الكلمة من معنى.

كان كريمًا بشكل لا يصدق، ليس فقط بالمال؛ بل بروحه التي تتقن العطاء، عندما علم بوضع والدي المالي، قرر مساعدتنا دون أن ينتظر شيئًا بالمقابل، كان كريمًا إلى أبعد حد، لم يبخل عليّ يومًا بأي نصيحة، واتفقنا على ألا أخبر أحدًا بذلك، أمام الجميع وأمام عائلتي أنا مجرد فتاة تتدرب عنده متحمس لتفوقها واجتهادها، مستحيل أن يكون هناك من هو أحن منه، كانت روحه ترعاني في كل خطوة، يهتم بتفاصيل حياتي، يسعى لتعليمي لأكون يومًا محامية ناجحة، كان حريصًا أن يعطيني دروسًا في الحياة بأكملها، يسعى لأن يكسبني خبرات عن طريقه دون أن أقع في فخ التجارب الخطرة، حتى وإن تطلب منه ذلك أن يكون قاسيًا عليّ أكثر من اللازم أحيانًا كثيرة، كان بالنسبة لي مرشدًا يشير لي بحرص على الطريق الصحيح لمستقبلي وحياتي.

إنّه أستاذٌ مثالي وإنسانٌ عظيمٌ، وأبٌ رائعٌ، سيصبح بخير أليس كذلك؟

مسحت مودة دموعها واقتربت منها بعطف تربت على كتفها، تجاهد لتظهر ابتسامتها وكأنّها تواسيها ربما تستطيع أن تواسي نفسها؛ فأخيرًا وجدت قصة مضيئة في حياته بعيدًا عن علاقاته المشكوك فيها، حتى وإن كانت أيضًا مع الجنس الآخر، وقالت بلطف: مصاريف تعليمك ستستمر كما هي وأنا المسؤولة عن ذلك لحين شفاء آدم.

قالت والدتها بكبرياء بعدما لم يرق لها الحديث: شكرًا لكِ على كرمكِ وحسن المعاملة، ولكننا حضرنا للاطمئنان عليه ليس أكثر.

جذبت شذى وابتعدت من أمام مودة التي لم تعر اهتمامًا كبيرًا برد فعل السيدة ولا بمحاولات رفض ابنتها السير معها في البداية ومغادرة المكان؛ فهناك ما هو أهم من قصة عطفة على إحداهن، هي تعرف عن آدم أنه كريم معطاء إلى أبعد حد، خيّر حنون مع الجميع، وما شذى سوى واحدة من كثير يحملون له جميل مساعدته لهم ووقوفه معهم.

لم تظهر صبا منذ آخر مواجهة، وكأنّها تتعمد ألا تكمل قصتها معه، ولم ترَ عهد كما توقعت، لا تعرف أين تسكن صبا، لم يسبق لها أن تعاملت معها أو رأتها قبل ذلك اليوم بالمستشفى، فقط تعرف أنّها واحدة من المحاميات اللائي يعملن معه، لكنّها بالطبع تعرف منزل الأخرى.

....

وقفت أمام الباب تنتظر أن يُفتح، تشعر بأنّ هناك من ينظر عليها من عدسته بالجهة الأخرى، تضع إصبعها على الجرس بإصرار يجعل من بالطرف الآخر لا يفكر في الهروب من المواجهة، حتى فتحت عهد يظهر عليها التوتر، تنظر إليها ثمّ تعود لتنظر داخل المنزل بقلق، تبتلع ريقها ولا تستطيع التفوه بأيّ كلمة أو حتى الترحيب بها كضيف؛ فمن الواضح أنّها ضيف غير مرغوب به، ولكنّها لن تتسم بالذوق وتنصرف بسهوله، لقد جاءت وهي تتوقع رد الفعل.

_ أريد التحدث معك من فضلك؟

_ لا يمكننا الحديث هنا، زوجي بالداخل.

_ إذًا سأنتظرك بالأسفل.

غادرت بثبات دون أن تنتظر الإجابة، فلا مجال للرفض، وتركتها تغوص في ارتباكها.

****

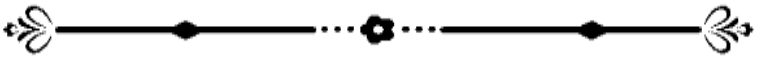

الفصل السادس

ثقل في حركته وكأنّه مقيدٌ بخيوط غير مرئية، الجدران من حوله باهتة، الأثاث مهترئ، أمامه امرأة لا تتضح ملامحها، ضوء قويّ مسلط عليها يجعله لا يرى وجهها، تقترب منه على مهل، تتضح تفاصيلها، يعرفها جيدًا، تنظر إليه بتحدٍ ورغبة، تحاول الاقتراب منه، تمد يدها نحو وجهه، يحاول المقاومة، يتراجع للخلف، تقترب أكثر، همسها يغزو عقله، الضعف يتسلل إليه، قلبه يخفق بسرعة، أطرافه ترتجف، يرغب في الابتعاد، لكنّه لا يستطيع، يدها تلامس صدره، تعبث في قميصه بجرأة، لم يحاول الابتعاد ولا الفرار، استسلم بنشوة، لم يُقدَدْ قميصُه من دُبُر، الحرارة تجتاح جسده، الرؤية مشوشة، تغيب في الظلام، تتلاشى بعد أن أسقطته في جرم لم يُغتفر. يختنق، ينفر من نفسه رغم أنّه ما زال في فراشه، يغمض عينيه بشدة، يحاول عبثًا عدم تذكر ما رآه، يستسلم مرة أخرى للنوم ربما يستطيع التكفير عن خطيئته.

....

عهد:

كان شابًا طموحًا يحاول إثبات نفسه وسط عدد لا بأس به من المحامين الذين يعملون بنفس المكتب، الجميع استطاع بصعوبة الوصول إلى ذلك

المكان، مكتب من أكبر مكاتب الاستشارات القانونية في المدينة، المنافسة شرسة، لا مجال للتكاسل أو التقاعس، التخلي أبسط شيء لمن لا يستطيع إثبات مهاراته؛ فهناك الكثير ممن يحلمون بمثل تلك الفرصة.

أسبقه في العمل بالمكتب بعامين تقريبًا، وقد كان لي بين جميع المتدربين مكانتي، قريبة من زوجة المحامي صاحب المكتب، كان آدم بشوش الوجه، مجاملًا من الدرجة الأولى، لا يلجأ إليه أحد إلا ووجد عنده مبتغاه، حنون على الجميع، ولكن مثل تلك الشخصية مؤكد سيكون هناك من يحقد عليه ويحاول التخلص منه حتى يظلّ وحده في الصورة.

اتفق زميلان على إبعاده، تعمدا تضليله في إحدى القضايا المهمة الموكلة إليه بصفة خاصة، عرفت بتلك المؤامرة عن طريق المصادفة؛ فقد بدأ الاثنان التلاعب به وإخفاء مستندات القضية لاتهامه بضياعها منه، كاد ينهار حينها وخاصة أنه كان في حالة نفسية أتاحت لهم فرصة الإيقاع به في فخ الإهمال، فقد كانت حبيبته قد توفيت في ذلك الوقت، مما جعله مشتت الزهن، ظلّ لفترة غير متزن، انقلب حاله ليتحول إلى شخص كئيب، حزين طوال الوقت، منطوٍ يفضل العزلة بعد أن كان شعلة من النشاط والحماس.

استطعت الوصول إلى المستندات دون أن يعلم أحد بتدخلي في ذلك الأمر، أخبرته بما يحاك من وراء ظهره، سلمته كل ما يخص القضية، وكل ما أُخفي من طريقه عمدًا؛ بل وساعدته لدعم موقف الموكل بكل ما أتيحت لي من خبرات وعلاقات، فاز بالقضية ومن أول جلسة، أصبح حديث الجميع، فقد

كانت من القضايا المهمة بالمكتب، اكتسب ثقة الأستاذ في قدراته ومهارته، وتوالى تسليمه القضايا الشائكة التي تحتاج حنكة وذكاء المحامي، طلب حينها أن أكون من ضمن فريقه في حل القضايا والعمل عليها معه، سعِدت بذلك كثيرًا رغم أنه من المفترض أن تصيبني الغيرة كالبقية وأنا من يسبقه في المكان، وأكثر منه خبرة وعلاقات، ومع ذلك لم أشعر إلا بالسعادة فالعمل معه ماتع، به راحة نفسية لم أشعر بها أبدًا طوال سنوات عملي، بيننا انسجام في العمل وتكامل وكأننا عقل واحد يكمل كل منا الآخر، أصبح له عملاء يطلبونه بالاسم، خاصة أنه يجيد التعامل مع الجميع، يحمل من الذكاء الاجتماعي ما جعل علاقاته تتوسع بسرعة.

في لحظة حماس، قرر أن يستقل بالعمل ويفتح مكتبًا خاصًا به وحده، وبالطبع أنا معه، طوال تلك السنوات كانت لي كل الصلاحيات، أحمل كامل الثقة منه ومن الآخرين، لا أشعر إلا أني شريكة في المكان والنجاح.

أخبر نفسي دائمًا أني لو كنت التقيته قبل زواجي ربما كنا الآن أسعد زوجين، كان لي الأخ الذي أعتمد عليه، الصديق الذي يفهمني قبل أن أتحدث، لم تكن حياتي العائلية سيئة، ولكنّها كانت عادية، عادية أكثر من اللازم، حياة بلا مشاعر، بلا إحساس، ومع أنّها مستقرة إلا أني تمردت عليها في لحظة طيش، عندما قارنت بينه وبين زوجي، ذلك الرجل الوقور، أستطيع وصفه دون تأنيب للضمير أنه متبلد المشاعر، الزواج بالنسبة له عقد اجتماعي غايته الإنجاب، فقط سبب لوجود الأبناء الذين يحملون اسمه

كما يحملون عجزه عند الكبر، لا يعرف عن مشاركة الحياة الزوجية سوى المشاركة بالفراش، لا مجال للتواصل العاطفي إلا عندما يرغب هو، وكأني أداة لأداء وظيفة، لا يعرف معنى لمسة عابرة تحمل دفئًا لمشاعر تخبره كم يحتاجه الآخر، أعترف أنه لم يكن سيّئ الطباع، لم يكن عنيفًا أو غليظًا، ولكنه ليس مثله، مثل ما أتمنى أنا.

طلبت الطلاق، توهمت أني سأجد حياة أُخرى بانتظاري، حياة أكثر سعادة وهناء، تصورت أن ما يمنع آدم عني سيزول بزوال هذا القيد الذي يلتف حول عنقي، يخنقني ويقيد تفكيري كلما حاول الإبحار في عالم من المشاعر المختلفة عما اعتدت.

استقبل الخبر بثبات وهدوء مبالغ فيه، وعلى عكس ما توقعت أخذ يقنعني بالعودة إلى عائلتي.

_ عهد، الأفضل لكِ ولأبنائكِ وجودهم في عائلة مستقرة، ليخرجوا أطفالًا أسوياء لابد من وجود الأم والأب، الحياة لا تعطي الإنسان كل شيء، منحكِ الله أطفالًا يتمناهم غيركِ، لديك استقرار مادي وزوج يلبي كل طلباتكِ، هادئ الطباع لا يحملكِ أعباء مادية ولا حتى عاطفية.

صِحت في وجهه بقهر: وأنا أين طلباتي العاطفية؟ أين مشاعري؟ أين قلبي من كل أعماله، مشاغله وأمواله؟

_ قلبكِ يرتوي بابنيكِ وحبهما.

كنت ما زلت في أشهر العدة، تصورت أنه يقول ذلك بدافع الواجب الذي دائمًا يفرضه على نفسه متحاملًا على كل ما يخصه، حتى انتهت ثلاثة أشهر حسبتها بالساعة والدقيقة، رفضت خلالها التواصل مع زوجي بأي طريقة؛ فلا أجد نفسي عدت إلى ما كنت عليه بدافع عدم تفكك الأسرة.

انتظرته، طال الانتظار، أيام دون أي خطوة تجاهي، ربما لأنه متزوج؟ إذًا لا بأس، ما المانع أن يكون زواجنا سرًا؟ ليس عندي أي مشكلة بالعكس هو الأنسب لأبنائي أنا الأخرى، فقط كنت أريد القرب منه، أريد لما عشته في خيالي أن يصبح حقيقة.

ذات يوم كنا بمفردنا بالمكتب، نعمل على مذكرة دفاع لإحدى القضايا المهمة، لم أعترف أني استغللت الفرصة؛ لأني ودون أن أشعر وجدت نفسي أقترب منه، وضعت رأسي على صدره بإنهاك، لم يبدِ أي اعتراض، ضمني بحنان كنت أرجوه منه، أغمضت عيني بين ذراعيه أستنشق رائحته التي لطالما سرقها أنفي كلما اقتربت منه؛ لأخفيها بين جنبات صدري أجترّ منها كلما احتجت، أعطاني ما طلبت، كان كريمًا ليهديني مشاعر لم أجربها من قبل، وكأنه يعلم ما أريد دون أن أنطق بكلمة، يعرف ما أحبّ دون أن يسأل، وكلما اكتفينا زاد في كرمه ليمنحني المزيد من الحبّ، حبّ مستحيل أن يكون بادله غيري، مشاعر واثقة أنها كانت لي وحدي ولم تكن لسواي من بعدي.

لا أعرف كيف مرّ الوقت ولا متى أشرقت الشمس، تسربت أشعتها من النافذة التي لم تمنحنا مشاعرنا فرصة إغلاقها؛ لتخبرنا أنّ الصبح قد لاح، فنسكت عن كل ما كان للحظات مباحًا، وتنتهي الليلة الأولى والأخيرة، لتتعلق بذاكرتي ليلة من الخيال، وكأنه أراد أن يترك لي ذكرى أعيش عليها باقي حياتي، ذكرى رغم جمالها، ولكنّها نارٌ تلهب قلبي وتعكر رضا أيامي وبركة حياتي التي لوثتها بيدي.

لم يتحدث عما حدث بيننا بعد ذلك بأي شكل، لم يتكلم في أي أمر يخصنا سويًا، أو يحاول حتى ترك مجال لحديث العيون، لتلوم أو تعتذر، تعاتب أو تشتاق، أيًا كان الحديث، عاد كما كان من قبل، وكأنّ تلك الساعات التي قضيناها معًا سقطت من حساب الزمن.

فقدت الأمل، لم أجد بدًا من الرضوخ لإلحاح زوجي، طالما لم أستطع تحقيق أحلامي؛ فلم يعد هناك داعٍ لتشتيت أبنائي بين والدهم وبيني، عدت كما كنت، مقيدة بقيود اخترتها لنفسي وتركتها تلتف حول عنقي كحبل من مسد، أستحقه جراء ذنب قلبي الذي تركته يتلاعب بي وبحياتي، لتظل هديته لي في ليلة أسقطها من أوراقه معلقة في ذاكرتي لا أستطيع نسيانها، لا ألومه عليها مثلما ألوم نفسي وأحملها وزر خطئي وخطئه عندما راودته عن نفسه فاستجاب، لم يكن هو يوسف حتى يعصمه الله من الخطأ، ولم أبرئ نفسي فلست امرأة العزيز.

....

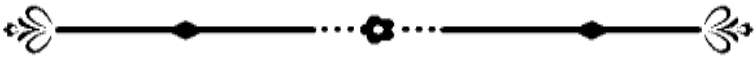

ودون أن تزيد عما قالت؛ فهو كافٍ بما يكفي، فتحت باب السيارة وغادرت مسرعة، تركت مودة في صراع مع دموعها التي باتت رفيقة لها منذ قرر هو الغياب عن الوعي وقررت هي أن تعي كل شيء.

****

الفصل الثامن

الرؤية صعبة، السماء تمطر بغزارة، طريق واسع تملؤه السيارات، تسير بسرعة بلا توقف، نور ابنه يحبو باتجاه الطريق، السيارات تمر على بعد إنشات منه، الأرض زلقة، السيارات تسرع أكثر؛ فلا ترى الطفل، ذعر يملأ قلبه وعقله، قدماه مغلولتان لا يستطيع التحرك، وكلما حاول السير انزلق أرضًا، يعود للوقوف بصعوبة، يختنق صوته كلما حاول الصراخ في السيارات التي لا تسمعه وسط ضجيج العالم من حوله وصوت الرعد يعصف بالمكان، من خلف الضباب صبا تقف على الجانب الآخر من الطريق، تنظر إليه بعتاب، المطر يتزايد في الانهمار لتغمره بشعور عميق من الخوف والعجز والجبن، قدماه ما زالتا لا تطاوعانه، بخطوات عاجزة حاول التحرك، نجح رغم البطء، يحاول أن يصل إلى ابنه، سيارة ضخمة تمر، صوت بوقها يفزعه، لابد أن ينجو طفله، يستطيع اللحاق به حتى ولو كانت النتيجة هلاكه.

سيستيقظ من سُباته ويرى ابنه بخير، يفتح عينيه ويجد السماء قد هدأت، والشمس أنارت له الطريق، يأخذ بيده ويعبر بسلام، سيفيق.

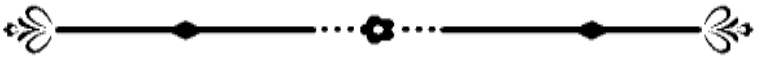

صبا:

كان كل شيء في النيل يتحرك إلى الأمام، عدا رحلتنا ذلك اليوم سارت عكس الاتجاه، من الأقصر إلى أسوان كانت وجهتنا عبر مركب نيلي، ربما هذا ما جعلنا نترك الحاضر لنجعل الماضي يتدفق كمياه النهر الخالد، جاءني يومها للحصول على بعض المستندات المطلوبة في قضية ميراث متعلقة بإحدى الأُسر التي لها أصول في بلدتنا، تمت المهمة أسرع مما تخيل؛ فوجدناها فرصة نادرة لنمضي المزيد من الوقت سويًا.

أقنعته بالرحلة المتجهة إلى أسوان، حيث موعد تعامد الشمس على وجه رمسيس، كنت على أمل التقرب منه أكثر، ربما أستطيع أن أحرك شيئًا بداخله تجاهي، كانت رحلة رائعة رغم أنها لم تكن الأولى بالنسبة لي، تحدثنا كثيرًا، أخبرني تفاصيل من حياته لم أكن أعلمها ولا أتصورها، لم يخجل وهو يخبرني كم عانى وكم من مرة دخل مغامرة مع إحداهن دون حدود أو قيود، وكأنّ غروب الشمس الذي جعل السفينة تتهادى فوق الماء أثار شجونه القديمة؛ لتتراقص مشاعره كرقصات المياه حولنا، كنت أستند برأسي على حافة المركب، أتأمل الأفق واستمتع لحكاياته وقصصه المثيرة مع نسمات الماء الباردة، وكأنّ النيل استعاد أمامه شريطًا طويلًا من الذكريات التي يقرؤها لي على سطور ضفافه.

وجدنا بيننا راحة وسكينة غريبة، ثقة جعلته يُلقي إليَّ أفكاره رغم غرابتها، علاقاته حتى وإن كانت خارجة عن الحدود، صداقاته رغم ندرتها ولكنّها

مميزة، عائلته القديمة التي كانت سبب معاناته، وأسرته الجديدة التي أصبحت كل حياته.

نبذة سريعة عن كلّ فترة مرّ بها سعيدة أو حزينة، ملخص لحياة عامرة، ألتقطها وأربط خيوطها وأكمل الحكايات كأوراق لعبة البازل، قصص غريبة بالنسبة لي لم أتصور أنها حدثت في الواقع، مشدودة لسماعها وكأنها حكايات جدتي عن وقت لم أعاصره وأناس يستحيل أن أقابلهم، يراودني الفضول أن أعرف نهايتها سريعًا؛ فلا أقاطعه، تركته يخرج كل ما في جعبته، وجلست أستمتع إليه بمتعة غريبة.

أحيانًا كنت أبتسم، وأخرى تدمع عيناي دون أن أشعر مشفقة عليه، كانت حياته حافلة بالصراعات التي تركت في قلبه وروحه ندوب لا تمحى، وكأنها نحتت ملامح شخصيته المتقلبة، وعُقد مدرك وجودها وأسبابها، لحظات ينتابني الرهبة والخوف منه، كيف لهذا الرجل الذي عايش نساء أكثر من سنوات عمره، أن يتعامل معي بهذه البراءة؟ هل هذه حقيقته فعلًا، أم هو قناع يخفي خلفه ما زرعه الماضي؟ ورغم هذا الخوف وجدت نفسي مشدودة إليه، لم أنفر منه رغم الرهبة التي دخلت قلبي تجاهه، لا أعرف كيف قرأ أفكاري وهو يبتسم ويقول: هل أخافتك حكاياتي؟ أم خشيت مني على نفسك؟ لا تقلقي يا صبا، ربما أنا الشخص الوحيد في العالم الذي لابد ألا تخافي منه.

قلت بابتسامة مندهشة: لماذا؟!

_ لأنني مستحيل أن أضرك أو أن أكون سببًا في ألم يحدث لكِ يومًا مهما حدث.

_ لمَ وكل شيء محتمل؟

_ لأنكِ مني.

فابتسمت بخجل وابتعدت بعيني عن نظراته الواثقة، بعدما أَدركت أن ذلك القناع الذي أجاد صنعه وأحكم وضعه كان لحمايتي من انعكاسات شخصيته التي لم أتمكن من فهمها بعد، شخصية تبدو مثيرة للاهتمام وجالبة للفضول.

وقفنا نتأمل الشمس وهي تلقي بظلالها الذهبية على وجه رمسيس، الجميع يحدق في الملك الشامخ بانبهار، إلا أنا، أنظر للواقف بجواري بنفس الانبهار، رأيته ملكًا أقوى من شهريار الذي حطم أحلام الصبايا وأزهق أعناقهن بلا تردد جزاء لخيانةِ إحداهن، لكنّه لم يكن بحاجة إلى دماء ليثبت قدرته، كانت قوته نابعة من شيء أعمق، شيء لم تدركه بطلات حكاياته وهن غارقات في سطوة حضوره، كيف له أن يحمل كلّ تلك التجارب بداخله ويصبح بهذا الهدوء والثبات؟! كيف يستطيع التوازن والانسجام في الحياة رغم كل المتناقضات؟!

رائع هو رغم خطورة أفكاره وتهور رغباته، مثير للفضول رغم أنه يبدو كتابًا مفتوحًا أمامي، ولكنّه كتاب من أجزاء أغلق بعض صفحاته بإحكام

لا يريد الإفصاح عنها، واستفاض في أجزاء خصني بها، ربما خصّ غيري بغيرها، لا يهم، المهم أنّ لي نصيبًا من الأسرار، نصيبًا أكثر من غيري وليس أقل، وأنا لا أرغب أن أكون له شهرزاد التي تحاول تأخير تنفيذ حكم الإعدام بحقها ليلة تلو الأخرى؛ بل أريد أن يراني كما أراه، يشعر بي كما أشعر به، يُلقي عليّ نظرة اهتمام من نوع خاص، كتلك التي ينظرها تمثال الملك العظيم لنفرتاري التي خصها وحدها دونًا عن زوجاته بالحبّ، أن يرى الشمس تُشرق من أجلي كما خلد رمسيس على النقوش التي أمامي، أو حتى تغرب من أجلي لا يهم، فقط أن أحصل على نظرة مختلفة بها وعد بالأمان الذي لم يعطه لواحدة قبلي ولن يعيطه بعدي.

أسقطت كل تخيلاتي وأحلامي تحت أقدام كُهان المعبد بمجرد أن نظر بابتسامة محترفة متمكنة، وبتلاعب غمز لي مشيرًا على إحدى السائحات قائلًا: انتظري وشاهدي سأعلمكِ درسًا لن تعرفيه إلا معي، ستحاول لفت نظري بعد دقائق بأي طريقة، تختلق سببًا للحديث معها، سأساعدها فيه لأنها تستحق.

وقبل أن أعترض على حديثه وأنتقد أفكاره، لم تمر ثوانٍ حتى توقفت بالقرب منا وأمسكت رأسها بإرهاق، لولا حديثه قبلها، ما كنت صدقت أبدًا أنها متعمدة، اقترب منها ليسندها برفق وبقلق مستعر قال: هل أنت بخير؟

كانت ذات جمالٍ لا يمكن أن أنكره رغم نيران الغيرة التي اشتعلت بداخلي، شعرها الأسود ينساب كستارة ناعمة حتى أسفل ظهرها، يلمع

تحت أشعة الشمس كأنّه حرير مسحور، ملامحها غريبة، تحمل من الرقة والقوة، عيناها عسليتان يتوهج فيهما بريق الرغبة الشره، جسدها الممشوق محترف التلاعب بحركات لا يمكن تغافل تأثيرها على أي شاب يقع في براثنها ويقترب من عرينها، كنت أتأملها عندما أجابته بلهجة جزائرية فاجأته كما فاجأتني، فلقد اعتقدنا أنها ليست عربية، أمسكت رأسها متظاهرة الإرهاق وقالت: رأسي، ربما أصبت بضربة شمس.

التقط مني زجاجة المياه دون اكتراث بمشاعري، سكب منها القليل على يده ومسح بها على وجهها ببساطة لم يقابلها أي نفور منها؛ فابتسمت هي بانتصار لم تستطع إخفاءه قائلة: الشمس حارقة وقد ضللت طريق العودة إلى الفوج السياحي الذي أتيت معه.

_ لو تعرفين الفندق سأصحبكِ إلى هناك، لا تقلقي.

_ المفترض أنّهم الآن في طريقهم إلى معبد فيلة.

_ إذًا سأصحبكِ إلى المعبد.

ونظر لي غامزًا بتلاعب مرة أخرى وهو يقول: ألقاكِ في الباخرة، صبا.

لم أهتمِمْ بابتسامة النصر التي سيطرت على محياها عندما رحل معها وتركني يتسلل اليأس إلى عروقي، وكأنّ لدغة أفعى كبرى أصابتني وهي تتلوى حوله كحارسة أبدية، بعدما تطاولت واخترقت بوابة أسراره؛ فأصابتني اللعنات، لم أتفاجأ، هذه هي حقيقته التي لم يخفها عني، لم أُصدم من تركه لي بمفردي، يعرف أنّها بلدي أحفظ كل شبر بها، ولكن لا أنكر، كان بداخلي

غصة، سرعان ما سيطرت عليها وأنا أنتظره على سطح السفينة ليقصّ عليّ في رحلة الرجوع مغامرته الجديدة، مغامرة من الحاضر على أعتاب الماضي.

وقد كان، ظهر بابتسامة لولا أني أعرف سببها لتخيلت أنه يخصني بها وحدي دونًا عن كل نساء الكون، مسيطر دائمًا على تعبيراته، متحكم في معناها ومدرك سهام قوتها، بدأ يقص عليّ مغامرته مع سارة خلف الأحجار القديمة والتماثيل ذات الأعين الجوفاء، وكيف شهد الأجداد أن حفيدهم يُغرم به كلّ الجنسيات كغرام السياح بحضارتهم، وكأنّه متأكد أن أرواحهم تحوم فوق المكان تفخر به وبجاذبيته كفخره بهم، ضحكت بسخرية من تشبيهه، حاولت ألا يظهر عليّ ذلك، ولكن، كيف له أن يتحدث بتلك البساطة عن علاقته أمامي مع إحدى المارات مصادفة بجواره؟!

سعيد بأخذ موعد منها في القاهرة لتشاهد معه الأهرامات، إرثه العظيم من الأجداد برعاية أوزوريس الإله الذي بعثه ليكمل إنجازات الأجداد، أحاول عدم الضحك مرة أخرى، وأنا أُذكر نفسي أنه مؤكد ستتكرر اللقاءات، فما المانع وهو ساحر للقلوب كما يدعي؟! أبعدت نظراتي عنه لأرمي بأفكاري لمياه النيل التي بدأت في الابتعاد من أمام المركب هروبًا من مواجهتي بحقيقته التي أدركها لكنّني أتجاهلها، واستعدينا لرحلة العودة.

غادر دقائق ليعود بعد أن بدل ثيابه، ربما أخذ حمامًا غسل به إثمًا اقترفه كان في غنى عنه، زاد من ذنوبه دون حساب، وأخذ ينقص من حسناته حسنات، جلس أمامي مسترخيًا على السطح الخشبي، تداعب الرياح

خصلات شعره السوداء الناعمة كنعومة حديثه، تعكس عيناه لمعان الشمس الذهبي وهو يضع راحته تحت ذقنه تارة يتأمل النيل وأخرى تكون من نصيبي، رمى عليّ ابتسامة عميقة أكثر من مجرد تعبير عادي للمجاملة، أخذ شهيقًا أخرج بعده بقايا ذنب لن تزول آثاره حتى يسأل الله التوبة، وقال: هذه المرة أنتِ من ستخبريني بكل الحكايات والأسرار؛ فالعودة لكِ كما كان الذهاب لي.

كان صوته يحمل نبرة اهتمام وود أفتقدها في كل من أعرفهم، سبحتُ معه في مياه النيل بعذوبة وبراءة اندهشت من تقبله لها، كنت لا أخشى العزف على تفاصيل حياتي التي طلبها بنفسه ليشاركني فيها، يراني لأول مرة على حقيقتي كما رأيته، حتى وإن كان منظورنا للحياة على النقيض، التزامي لم يدهشه؛ بل عكس ما توقعت فقد شجعني لأستمر وألا أجعل أي شيء يغير من أخلاقي وأفكاري، مؤمن بمبادئي رغم أنه لا ينفذ أغلبها، كنت كلما أنهيت حكاية طلب المزيد بفضول رغم أنّ ما عندي قصصًا عادية تتكرر مع غيري وغيري يعيشها، حتى انتهى مشهد النيل بالوصول إلى المرسى التي تفرقنا أمامها.

ذهب كل منا في طريقٍ مختلف على أمل أن تتقاطع طرقنا يومًا ما، ومنذ ذلك الحين وأصبحت أنا بالنسبة له ذلك المرسى الذي يلجأ إليه ليخرج ما في جعبته من حكايات تتراكم على صدره، وأسرار لا يمكن لأحد أن يعرفها، يتكلم ولا ينتظر الرد، يحكي دون أن يستمع للنصيحة، كثيرًا ما

كنت أشعر أنّه يتحدث مع نفسه وليس معي، ينسى وجودي، لا يحمل هم رأي الآخر فيه أو كيف يراه بعد كل التفاصيل المشوهة في حياته التي كشفها دون خجل أمامي، فلقد تقبلته كما هو.

علمت بعدها أن سارة اعتادت زيارته كلّ فترة، تكررت اللقاءات بينهما، ومؤكد تكررت مغامراته معها التي يتفاخر بها أمامي، يعلم أنّني مشدودة لحكاياته التي أسمعها واقعًا حقيقيًا من صاحبها، قصص تروى أمامي حدثت بالفعل بعد أن كنت أعتقد أنّها موجودة فقط في الأفلام والمسلسلات، ينسجها خيال كاتب وإبداع سيناريو وإضافات مخرج، عامان على هذا الوضع، لا تنتهي قصصه مع سارة أو غيرها! ولكنّها وحدها تعمدت أن تكون كل مرة مختلفة معه، مميزة، تنطلق في كلّ مكان يخطر له على بال دون حدود أو قيود، شعر معها بالحرية التي لم يجدها في أي واحدة عرفها من قبل، يخبرني بانبهار وشغف عن شعوره تجاهها.

_ يا صبا، إني أطير معها دون وعي، أحلّق في عالم بعيد عن عُقد الواقع وقيود المجتمع العقيم، لا تهتم لأحدٍ ولا تضع حسابات لشيء، فقط أن نستمتع بالحياة، ولا نضيع أجمل ما في الوقت، هل تفهمينني؟

_ لست متأكدة، ولكنّني أفهم عينيك.

لا أعرف لماذا كان ردي بهذا الشكل، وقبل أن أندم على ما تفوهت به، مرّ هو على عبارتي دون اكتراث، فقط نظرة خاطفة أخفاها قبل أن ألتقطها، بزهو استمر في قصصه، وبألم في قلبي أتقبل أن أستمع دون أن أبدي أي استياء

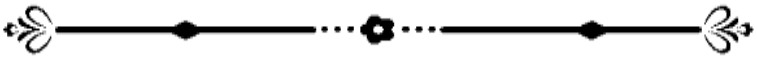

أو حزن على حالي أو حاله، أنا التي علقت نفسي بوهم حبّ ليس له وجود، وهو الذي سرقته ملذات الدنيا واعتاد الخطيئة، كيف لي أن أجعله يعود لطريق الرشد الذي نسيه منذ زمن عندما انغرس في الدنيا ونسي الآخرة، ربما يجهل الطريق، يستحق أن تكون حياته أفضل من ذلك، ولكن ليس بيدي إلا أن أسمعه وأحاول أن يتقبل مني النصيحة.

عاد في إحدى المرات على غير المعتاد، مصدومًا، منهارًا، يروي لي قصة جديدة لم تخطر على بال.

****

الفصل التاسع

صبا:

رحلة جمعته بسارة داخل ربوع مصر، سفاري على أرض سيناء، وبالتحديد مدينة دهب، حيث التخييم في الصحراء والانسجام مع الطبيعة، رمال تمتد بلا نهاية، على مرمى البصر الأفق يتلون بالشفق، خيمة كواحة برية وسط عالم شاسع بلون موحد، ونيران تلتهب معها المشاعر في حضرة الهدوء، فقط النجوم وحدها هي التي تكشف أسرار الخيام، القمر حارس أمين بعيد عن أيدي العابثين، وكهوف العاشقين ملاذ حميم للأحبة، كاتمة للأسرار بين جدران الصخور الصامتة والشواطئ المنعزلة في قلب الجبل.

داخل الخيمة التي جمعتهما برباط لا يعترف بقدسية سوى ليالي الحبّ، حتى وإن كان لا يوجد حبّ! عرف ما لم يحسب له حساب، بدأ في ربط الأحداث، ليكتشف المصيدة التي دخلها! نجحت في الإيقاع به وإدخاله علاقة معها على أمل أن يقع في حبّها؛ فوقعت هي في حبّه، وفقدت خيوط خطتها، تعمدت أن يعرف حقيقتها معتقدة أنّها استطاعت تعليقه بها، ولكنّها اكتشفت أنه لن يدخل قصة بتلك السهولة لمجرد علاقة عابرة يقضي معها بعض الأوقات المميزة، فعلها كثيرًا ومرت كذكرى عابرة، وما هي بالنسبة له إلا واحدة من هؤلاء العابرات، بمجرد أن انكشف أمرها الذي لم تنكره

أمامه، انهال عليها بضربٍ مبرح، لم يترك سُبة إلا ووصفها بها، خلصها من يده المتواجدون بالمكان؛ بل وأنقذوها وهي في حالة يرثى لها، أصابه الجنون وهو يجد نفسه وقع في فخها بسهولة، كيف وهو ذلك الخبير في أمور النساء؟ كيف لم ينتبه من البداية أنها قادته لما تريد لا لما يريد هو؟

بالطبع تدخلت شرطة السياحة وخرج الأمر عن السيطرة، ظلّ في القسم لعدة أيام حتى تفهّم الضابط موقفه وتعاطف معه، وكانت قد استقرت حالتها واستطاعت الإدلاء بأقوالها، تنازلت عن المحضر دون جهد، ابتعدت في هدوء قبل أن تقع في يديه مرة أخرى ويحدث ما لم يحسب عقباه.

وبقدر فزعي مما حدث، ورهبتي أنّ الخطر قريب بهذا الشكل من أي شخص يأخذه اللهو والبعد عن الله، بقدر سعادتي أو ربما شماتتي وأنا أقول له: لا يقع إلا الشاطر، آدم.

....

_ لماذا تخبرينني هذه القصة بالتحديد؟! لماذا مصرة على إعطائي كل ما هو غير مهم بعيدًا عما أريد معرفته؟

_ ربما كانت سارة سببًا أساسيًا في تغيير حياته للأفضل وانتهاء طيشه وتصرفاته الصبيانية، رغم عدم اعترافه بذلك، ربما حقًا لا أعرف متى تطورت علاقتي به؟ أو لأني وجدت أخيرًا من يصلح لأن أقص عليه حكايتي مع آدم حتى وإن كانت زوجته.

....

صبا:

نور أضاء حياته وأخرجه من عتمة طريق ضلّه لسنوات، نور الدين ابنه، غيّر مساره وأفكاره في لحظة، تصادف ما حدث معه من سارة ولادته، شعر أنه منحة وهبها الله إليه لينظر إلى الحياة بنظرة مختلفة، ارتبط بالعائلة وبطفل رأى فيه نفسه وأحلام مستقبله، امتدادًا له ولوالده الذي كان يعشقه ويحبه بجنون، يراه مثلًا أعلى وفخرًا له، ولابد أن يكون لابنه مثلما كان أبوه له من قبل، كان الأمل الذي دفعه لإعادة التفكير في أولويات حياته وخياراته، ابتعد عن ذلك الطريق المظلم الذي أخذه إلى إدمان الحرام، وكم أنّه أصعب من إدمان المخدرات والكحوليات، شيء كان يفعله بإرادته وبكامل قواه العقلية ورغباته، مَن أصابه المخدر وتحكم في إرادته، عقله مغيب حتى يستطيع أحد انتشاله من قاع الخِدر، أما هو فبكامل إرادته وسيطرته على شهواته ورغباته استطاع النجاة بنفسه من طريق يصعب العودة منه، ورغم مقاومة العقل ومحاربة النفس الأمارة، وضع لنفسه قيودًا لا يراها أحد سوى روحه، إرادة من حديد هي التي ربطته ليسيطر على ما اعتاد من نزوات، ستره الله إلى الآن وأعطاه فرصة للنجاة قبل الوقوع في وحل مرض لا يستطيع بعده النجاة، أو أن يوصم بخيانة يفرّ بعدها هاربًا من جنة أرضه وأهلها.

سعدت بقراره رغم أنّني حينها كنت قد فقدت الأمل بالفوز بقلبه كحبيبة وليس مجرد صديقة، لم أحلم يومًا أن أكون مكان إحداهن؛ فذلك الطريق

لا يصلح لي بأي حال، ولكنّني لن أنكر أنّني تمنيت أن أكون يومًا حبّ حياته كما كانت ليال، رغم أني لو كنت مكانها لما ابتعدت عنه أبدًا بإرادتي، لو كنت مكانها لتمسكت بحقي فيه رغمًا عن أنف الجميع، لكنت قد عشت حياتي في نعيم حبّه وانعكاس صورتي في عينيه، لكنت انتشلته من غرام الملذات ومتع واهية لأغرقه في متعة حبي وحدي وأغنيه عن نساء الكون.

نعم كنت الرفيق المخلص دائمًا، توءم روحه كما يقول، حالة خاصة لا يعرفها أحد سوانا، ولا تدركها الأنظار، صندوق للأسرار مخفي في مكان بعيد... بعيد عند ذلك المعبد الذي أصبح يجمعنا في موعد حدده الملك مرتين كل عام، حينها يأخذنا النيل في رحلة مع الذكريات تجعلنا نغتسل بماء مبارك من مشوار أشهر مضت ربما لم نلتقِ فيها، ولكنّنا لم نقطع الاتصال والحكايات.

ذلك اليوم حدث ما لم يتوقعه، اتصلت به منهارة أطلب نجدته وأنا لا أعرف كيف بإمكانه مساعدتي، كانت محاولة يائسة تعلقت بها كطوق للنجاة وأنا أسبح في بحيرة خلف سد لا يراني بسببه، ولكنّه يسمع ندائي، هل سيسعى لإنقاذي قبل أن تلتهمني التماسيح؟

_آدم، أنجدني، ستحدث كارثة، ذلك الشخص الذي كان يطاردني منذ فترة يريد الزواج بي، رآنا معًا في أسوان، التقط لنا عدة صور يهددني بها، ومصمم على إخبار والدي، لو علم يا آدم سأنتهي، أنت لا تعرف تلك اللحظات

البريئة بالنسبة لنا كيف هي في عيون المجتمع هنا، هذه الصور كافية لتحطيم سمعتي وربما إنهاء حياتي.

وأمام أنفاسه المتسارعة، وكلماتي المبعثرة التي بدأت تخرج مختنقة بسبب صمته؛ فأنا أعلم جيدًا ما يعنيه هذا التهديد من عارٍ وفضيحة، كما أنّني أعرف آدم أكثر مما يجب، أعرفه لدرجة أنّني لا أشك لحظة أن يتركني بمفردي أواجه، ومع طول سكوته، ازداد القلق بداخلي وقلت في أسى: لن أتحمل ما يمكنه أن يحدث، أقل الخسائر هي أن أتزوج مرغمة من ابن عمي، إنّها المرة الأولى التي ألجأ إليك فيها، آدم.

_ لا تفعلي أي شيء، لا تردي على أي رقم لا تعرفينه، اختفي من أمامه إلى أن أصل وأجد حلًا.

أغلق الهاتف وتركني في حيرة، لا أعرف ما الذي بإمكانه فعله، رضخت لأوامره وانتظرت يومًا... الثاني... الثالث... لم يظهر، لم يخبرني أنه فعل أي شيء، أرسلت إليه رقم ذلك الشخص حتى يطمئن قلبي أنه حاول التحدث معه، ولكنه لم يعلق، ثلاثة أيام لم يفعل أي شيء، الظنون تتلاعب في رأسي، يستحيل أن يتركني وحدي ويهرب، كنت أثق في شهامته لدرجة أنّ اختفاءَه أثار بداخلي كل مشاعر الهزيمة والإحباط.

ووسط صراعات قلبي الذي يؤكد أنه لن يتركني، وعقلي الذي يواجه الحقيقة، آدم ليس ذلك الشخص الذي يضحي بحياته ومستقبله من أجل واحدة أيًا كانت؛ فجميع النساء في عرفه لحظات عابرة، نزوات لوقت طال أو

قصر، ولكنّني لست مثلهن، أنا غيرهن، هو لا يراني بالنظرة نفسها، أنا توءم روحه؛ بل أنا روحه التي لا يستطيع العيش بدونها.

دخل أبي عليّ الغرفة بوجه متجهم، كادت دقات قلبي أن تقف رعبًا، نظر لي بتفحص وقال: هل تعرفين محاميًا يدعى آدم يوسف.

هززت رأسي بالإيجاب، وأنا أبتلع ريقي بعد أن جفّ حلقي، وهربت الدماء من عروقي، منتظرة صفعة من يده القاسية التي طالما لقمتني دروسًا من الرعب والجبن والخنوع.

_ إنه بالخارج.

اتسعت عيناي بصدمة، أحاول استيعاب ما قاله دون أن أجرؤ على النطق ببنت كلمة.

_ ومعه الأستاذ فراج المحامي الكبير، تعرفينه بالتأكيد، كبير أكبر عائلات المدينة، جاء ليتوسط له خطبتك.

لم أجد ما يمكنني الرد به، لا أعرف كيف أقنع آدم رجلًا بحجم الأستاذ فراج أن يكون معه في خطوة كهذه؟! نعم يتمتع بأسلوب مقنع يمكنه من التأثير على من أمامه بسهولة، لكن هل يملك ذلك التأثير مع رجل بهذا الحجم؟ كيف يفكر؟ وما الحل لو عرف أبي أنه متزوج؛ بل ولديه طفل؟ وهل عليّ الآن أن أرد على أبي أم الصمت هو أبلغ رد للموافقة؟ أيأخذ رأيي من الأساس أم يحاول اكتشاف مدى علاقتي بآدم؟

_ لن أنتظر رأيك، أستاذ فراج صعب رفض طلب له، مجرد حضوره منزلنا شرف للعائلة، سنقرأ الفاتحة الآن وإن قررتِ عدم إتمام الزواج بعد ذلك فلا بأس.

تزوجنا في غفوة من الزمن، لا أعرف كيف حدث ذلك وبمثل تلك السرعة، اتفق مع أهلي على اصطحابي معه إلى القاهرة حتى أعمل بالمكتب الخاص به، وقد كان، أخذ لي شقة بالقرب من العمل، وعدته ألا يعلم أحد بالقاهرة بأمر زواجنا مهما كان، حتى لا تتأثر عائلته، رضخت لطلبه كالعادة؛ فلا يهم أي شيء بالنسبة لي بعد الآن سوى قربه.

زاد ارتباطنا وتعلقنا، أصبحت لقاءاتنا السنوية وفضفضته في قلب نيل أسوان، لقاءات يومية داخل مكتبه، ولحظات هدوء وسكينة نختلسها كلّ يوم في عالمنا الخاص، منزلنا الذي جعلته له جنة كلما خرج منها يترك روحه حتى يعود مشتاقًا على جمر الحبّ، لم تعد حكاياته تسقط بيننا فوق سطح السفينة، أصبح يرمي بها بين أحضاني في لقاءات أكثر حميمية وجرأة.

اكتشفت أنه كان يعلم بمشاعري تجاهه منذ البداية، كان يقرأ نظراتي، يفهم اشاراتي، وقصد تجاهلي، حتى علاقته بسارة التي تعمد إظهارها أمامي، كان يريد إبعاد تفكيري فيه بهذه الطريقة، أن أيأس من استجابته لمشاعري، أزهد في حبه دون أن يكسر قلبي، كان يرى أن حياته ليست مناسبة لي، لا أستحق منه أن أكون إحدى عشيقاته في الخفاء، لم يرغب أن أكون زوجة في السر تفتقد الكثير من الحقوق، أو حتى كما أقنعني أنه لم يرد

خسارتي بأي حال، أحبني كما أحببته وربما أكثر، فقط كان يفكر في إسعادي، أن تكون تلك اللحظات التي نسرقها من الدنيا معًا هي الترياق من سموم حياة نتجرعها مع الأيام، كان يحاول إبعاد تفكيري عن حبّه دون أن يجرح كبريائي وكرامتي، ولكن للقدر رأي آخر.

عرفت معه كيف يكون الحبّ والإخلاص، منذ قرر الابتعاد عن نزواته وعلاقاته لم يقربها مرة أخرى، وإلا لن يخجل أن يخبرني، دائمًا كان يطلب مني مساندته وتشجيعه على جهاد نفسه، حاولت ملء حياته، أن يجد عندي ما كان يبحث عنه في كلّ واحدة عرفها، قمت بكلّ الأدوار الممكنة لأحافظ على بيتي وبيته! فلم أعد أقبل أن يشاركني فيه طرف ثالث أيًا كان، كنت الأم التي يرتمي بين أحضانها ليشتكي هموم الدنيا، الأخت وقتما يحتاج الدعم والنصيحة، الحبيبة عندما يريد أن يعيش في عالم خيالي يفصله عن صراعات الواقع، والعشيقة التي يجدها عندما تنتصر رغباته وتسيطر عليه ذكريات تلبيتها دون قيود؛ فينتشلها من ظلام النسيان ليرمي بها بين يدي؛ فأصنع منها حاضرًا لا يوجد به حرام، وكأنّني طيف يظهر له حين يتعطش شهواته؛ فينسى كل صفاتي التي اجتهدت أن أظهر بها أمامه ويتذكر فقط أني أنثى من حقه؛ فلا يتردد في العيش معها ليشبع روحه التي اعتادت الجوع، ويروي غريزته التي لا يكفيها كثرة الماء؛ بل يزيدها عطشًا، لم أشتكِ منه يومًا أو أحزن على حالي معه، كنت دائمًا مثله، أعيش بين لحظاتنا المسروقة بعيدًا عن العيون، راضية بنصيبي من

الشوق المستتر الذي يمنحني إياه، كنت كأرضٍ عطشى لا تنتظر المطر؛ بل قطرات من حضوره ترويني، حتى وإن جفّ بعدها قلبي وتركني مع ظلام الليل وحدي ليعطيكِ نصيبكِ منه.

....

_ كفى، لا أريد سماع أي شيء منكِ مرة أخرى، يكفيكِ إهانة لقلبي وكبريائي.

_ ألم تكن رغبتكِ من البداية، مودة؟! هذا نتيجة إلحاحكِ في معرفة كل شيء.

أغمضت عينيها بحسرة تحاول حبس ما تبقى بداخلها من دموع بعدما استنفدت الكثير على مدار أيام، وقالت: فتخبريني أن وجودي لم يكن ذا قيمة، أني كنت مغيبة، غبية، لم أملأ عينيّ زوجي يومًا، لم أكفه وأشبعه؛ فظلّ يبحث عن البديل بعيدًا عني حتى وجدكِ.

_ بل كان يحبكِ، يحترمكِ ويقدر وجودكِ، حرص ألا تعرفي أي شيء فيجرحكِ، كان يحاول تعويضكِ وتلبية طلباتكِ حتى وإن كان فوق طاقته، كنتِ أنتِ من يراها تستحق الظهور أمام الجميع كزوجة له، أنتِ الأم التي اختارها لابنه وآمنها أمام الجميع على اسمه.

_ ولكنّه لم يأمن معي على قلبه.

وانصرفت تلملم كبرياءَها وأنوثتها المجروحة.

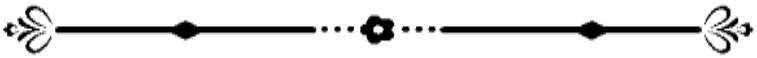

الفصل العاشر

نور قوي يخترق عينيه، لا يستطيع رؤية شيء بوضوح، يضع يده أمام وجهه يحاول الاعتياد، جدران عالية تحيطه من كلّ جانب، سجين داخلها يرى العالم منها ولا يقدر على اختراقها كأنّها من زجاج، أمامه صندوق خشبي قديم عليه قفل من ذهب، يقترب منه، يفتحه، وجد قلب آدمي ينبض يحاول الفرار، أفزعه شكله، أراد إخراجه، لم يستطع، فجأة ظهرت امرأة لا يرى ملامحها بوضوح، يشعر أنه يعرفها، قريبة منه ولكنها بعيدة، ترتدي ثوبًا أبيضَ، تُمد يدها لتساعده، ولكنّ كفها ملطخ بالدماء، يشعر بالخوف، الصندوق أصبح فارغًا، اختفت فجأة ومعها القلب، تراجع خطوات للخلف بفزع، اصطدم بعهد، طلب منها العون، دفعت الصندوق بعيدًا بقدمها، غادرت بلا اكتراث وتركته وحده، المكان ينهار، يدور حول نفسه، يبحث عنهما، ليس لهما أثر، ولا حتى القلب أصبح له وجود.

طنين في أذنه يخترق الوسادة، دقات قلبه يسمعها بوضوح تدعوه للاستيقاظ، لابد من صحوة تعيد ترتيب الفوضى التي تراكمت في عقله.

....

تتسرب الحقائق أمامها بلا استحياء، تصدمها الاعترافات بجرأة لا تعرف الخجل، ومع ذلك، يبقى الكثير طي الغموض، أهي قادرة على تحمل معرفة أكثر من ذلك؟ أتواصل السير في متاهة الحقائق لتكمل الصور الناقصة في مكتبه؟ أم تكتفي بما عرفت خشية أن يزيد الوضوح من عمق جرح كرامتها وإهانة مشاعرها؟ إلى متى سيظل في غيبوبته وهي غارقة في دوامة البحث عن حقيقة جاهد في إخفائها؟

عشرة أيام وكأنّها دهر، ومازال يهرب من مواجهتها، يعيش سُباتًا ثقيلًا، يخبرها الطبيب أنّ بإمكانها التحدث معه؛ فحاسة السمع عند مريض الغيبوبة تعمل، يجب على الجميع التحدث معه لتنشيط عقله وحثه على الخروج من ثُباته ربما يستجيب، ولكن عن أي شيء تُحدثه، أتخبره أنّها عرفت ما أخفاه عنها فيزداد إصرارًا على الهروب، أم تخبره اشتياقها له ولأيامهما معًا، أحلام ابنهما ومستقبله بينهما، وقد قررت هي الخلاص والانسحاب من حياته إلى الأبد، وكأنّ الغيبوبة أصبحت حصنًا يحتمي به من أسئلتها العالقة كما يحتمي به من محاسبة عملائه وموكليه! وماذا تنتظر أن تكون إجابته، هل ممكن أن تكون الخيانة مبررة؟!

عهد:

أكملنا الطريق سويًا كما تعاهدنا، بدأ المكتب يحقق نجاحًا واسعًا لا مثيل له، وهو كما هو، جاذب للجنس الآخر، كيمياء بينه وبينهن لا أجد لها سببًا

منطقيًا سوى أنه من يسعى لذلك، أتابعه مع هذي وتلك، فما الجديد؟ عرفته هكذا، يتفاءل بالتعامل معهن، ربما لتمكنه من السيطرة عليهن، تجاربه مع الكثيرات أعطته تلك الخبرة! المهم أنه ينجح في العمل مع النساء نجاحًا ليس له نظير.

حتى تغير كل شيء فجأة، استقامت حياته كما لم أعتد عليه، ظهرت صبا التي قلما كنت أسمع عنها عندما يحتاج شيئًا في الصعيد يخص العمل، كانت رقيقة كفراشة برية لم تمسسها يد عابثة، محتشمة حد الاستفزاز، تهتم بالعادات والتقاليد المتأصلة بداخلها، بشرتها صافية رغم سمارها تعطي إيحاء بصفاء روحها، عيناها واسعتان بلمعان يدل على الذكاء، مهذبة مع الجميع، تتجنب الاختلاط والتحدث خارج حوارات العمل، لم أستطع إثبات شيء ضدها طوال مدة عملها معنا، ورغم كل ذلك، كان يثيرني وجودها، هدوءها، اجتهادها، ملامحها البريئة، ربما ليست بالجمال الملفت للأنظار، ولكنّني دائمًا كنت أشعر أنها الأكثر تألقًا في المكان، أسأل نفسي كلما رأيتها تتحرك في المكتب بثقة غريبة كملكة قصر نعمل به جميعًا: هل هي أجمل مني؟ لماذا تجذب الانتباه أكثر؟!

لم أهتمِمْ يومًا بجمالي ولا بشكلي، طوال حياتي واثقة أني مميزة بشخصيتي القوية وملامحي الجادة، ولكنّني لأول مرة أنتبه أنه ورغم تمكن آدم من العزف على أوتار مشاعر النساء، لم يسبق له وأن ألقى عليّ بعضًا من العبارات التي يُحسن استخدامها، لم تسلم من مغازلته أي واحدة مرت

مصادفة من أمامه، فلماذا لم يرني كما يراهن؟ ما الذي ينقصني ليهتمّ بي كأنثى كما يفعل معهن؟

لم أضبته متلبسًا بنظرة جريئة أو ابتسامة متلاعبة تخبرني أنه ما زال على عهده القديم، أخذ قراره بالتوبة وأعلنها أمامي صريحة ولن يحيد عنه أبدًا، فقد علمته ذا إرادة حديدية وثبات على الموقف يُحسد عليه.

ولكنّني ذلك اليوم اكتشفت أن توبته لم تكن موجهة لها هي الأخرى، ضبطته متلبسًا بجريمته أخيرًا، سمعتهما يتحدثان في غرفة المكتب الخاصة به عن رغبتها في الذهاب إلى أهلها خلال فترة إجازة القضاء؛ فالمكتب يكون في حالة ركود ذلك الوقت كل عام، ليرن صدى صوته في أذنيّ وهو يخبرها بشغف أنه لا يستطيع الابتعاد عنها كلّ تلك المدة.

الدم يغلي في عروقي، الغيرة تسيطر على كل ذراتي، الحقد ينهش قلبي ويدفعني للرغبة في تمزيقها إربًا، هذه الحرباء المتلونة التي أجادت التمثيل حتى استطاعت إيقاعه في براثنها، اقتحمت الغرفة، لم أعد أرى شيئًا سوى وجهيهما والغدر في عينيه، صوتها الناعم يتغلغل داخل أذنيّ وهي تتدلل عليه بأنوثة تجيد التلاعب بها، انهلت عليهما بالاتهامات، لم أترك لفظًا استطعت التفوه به إلا ووصفتهما به، الحقارة، الخيانة، الكذب، الفجور، سكاكين تعمدت توجيهها لهما ليشعرا كما يشعر قلبي، ولكنها ظلت صامتة، متجمدة، ارتقت عن الرد عليّ، فقط تنظر إليه، عيناها تغرقان في العتاب، والتساؤلات تسبح على جفنيها، رد فعلها يثير غضبه أكثر من

كلماتي، تلك النظرات أحبطتني، أخجلتني من نفسي، ولكنّها لم تسطع أن توقف ثورتي، لماذا لا تحاول الدفاع عن نفسها أو حتى الرد بفجور؟!

أسرع في إغلاق الباب الذي لم أهتمِمْ بإغلاقه خلفي وأنا أقتحم عليهما لحظات الاشتياق ومشاعر الفراق، لم يهتمِمْ بالسكرتيرة التي وقفت بالقرب من الباب تحاول فهم ماذا يحدث بجرأة لم أنتبه إليها حينها، حاول إسكاتي، حاول أن يوقف انفجار الكلمات الذي ثار من بين شفتيّ دون حسي أو إدراكي، كنت أدافع عن حقي فيه الذي لم يعطه لي من البداية، وعد لم يعدني به من الأساس، اكتسبته من صداقة كبرت بيننا، أو حتى ثقة، ليس من ليلة عابرة في لحظة ضعف، لم أدرك أنني فضحت نفسي أمامها وربما أمام كل من بالخارج إلا عندما جاءتني صفعته على حين غفلة من ثورتي، ارتدّ جسدي للخلف في رهبة وخوف من غضبه، غضبه الذي أعرفه جيدًا وأعلم مدى وحشيته عندما يتمالكه، انتظرت أن يزداد همجية معي لأفضحه وأكشفه أمام نفسه وأمامها.

_ اخرسي عهد، لا تتفوهي بأي كلمة أكثر من ذلك، غبية، إنها زوجتي على سنة الله ورسوله، زوجتي أمام أهلها وأمام الجميع.

_ زوجتك؟

لم أسمع أي كلمة بعدها، دارت في عقلي كلماته كصداع يجتاح رأسي.

زوجته؟

تزوجها وتركني رغم ما كنت قد ضحيت به وفعلته من أجله؟ وبصوت يختنق في حنجرتي سألته: تزوجتها ورفضتني؟

انتهى الهواء من الغرفة، ثقلت أنفاسي، عيناه تهربان من عينيّ، الجدران تضيق من حولي ويقفان هما في شموخ، وما زالت تعاتبه نظراتها بهدوء، تتحدث عيونهما أمامي دون اهتمام بمشاعري، تؤنبه على أخطائه دفعة واحدة، بسهم نظرة من عينيها اخترقته واخترقتني، نظراتهما تحمل ألف قصة، ألف عتاب واعتذار منه، تنتظر التبرير دون أن تطلب، فتثور لها أوداجه وتنتفض عضلاته.

لماذا أخسر أنا؟ ولماذا لم يشعر بي كما يشعر بها الآن؟ دائمًا أحمل عبء خيبات متراكمة، وديون لم يحاول تسديدها لي أبدًا وكأنّني متنازلة، حتى قال بجسم وبلا أي تردد: انصرفي عهد، لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن.

وهمس وهو يدفعني خارج المكتب حتى لا يسمعه أحد المتلصصين بالخارج: اذهبي وابحثي عن حلٍ تُحسني به صورتك بعد أن لطختِ نفسكِ بعار تلك التهمة الشنعاء في لحظة طيش.

ابتعدت، كان قلبي يصرخ بي أن أنتظر ربما يناديني معتذرًا، يحاول شرح أسبابه وموقفه كما اعتاد معي، لم أسمع سوى وقع خطواتي التي تبتعد عنهما دون رجعة.

لم ألتفت، ليس لأني لا أريد؛ بل لأني إن فعلت سأضعف أمامه، سأعترف بخطئي وأعتذر عن تهوري وربما عن حبي له الذي لا يغتفر، غادرت المكان

كله، تركته وتركت معه سنوات تعبي وعملي في مكتب يحمل اسمه، رحلة طويلة من النجاح لم تشفع لي أمامه في لحظة غضب، ألقى بي خارج جنته فقط لأني اعترضت، وقفت أمام كذبه ونفاقه، استغلاله لي وربما لها، ولكن عن أي جنة أتحدث وقد كنت أعيش حياة الجواري؟! أطيعه بلا نقاش وأنفذ أوامره بلا تفكير، في أي نجاح وقد كنت مجرد أداة في يده يحركها كما يشاء، هو العقل المدبر وأنا المنفذ دون أي عناء منه، أكان لرأيي قيمة في قراراته، أم كان يوهمني بالمشاركة لأشعر بأهميتي؟

قررت أن أختفي تمامًا لأتركه يواجه وحده، أشاهد من بعيد كيف يستطيع النجاح من دوني، بعد أن كنت بجانبه في كل لحظة، أملأ فراغ غيابه المتكرر وهو يجري وراء نزواته وأمسياته العاطفية، أمسك بيده عندما يحاول أحد إسقاطه؛ فيزداد غرورًا بمجرد نجاته، لكن اليوم... اليوم سأتركه وحيدًا ليسقط، لن أكون المنقذة بعد الآن.

رغم ألم اللحظة، إلا أنّني شعرت بالراحة من أعماقي، إنه المخاض للتخلص من حبّه، سأنزف دماءً فاسدة لأعود وأتطهر من رجسٍ أقترفه في قربه، ذنب حبه الذي لا يغتفر، انتهت سُخرة سيطرته التي ظلت لسنوات دون أن أعلن عصياني، تحررت من عبء عبوديته لي دون مقابل، لا؛ بل كان المقابل ليلة في غفلة من الزمن، سويعات وصمتني بالعار أمام نفسي وأمامه واليوم أمامها هي الأخرى، ربما أخبرها عن تلك اللحظات التي قضيناها معًا بمجرد خروجي من المكتب؛ فازدادت احتقارًا لي، سأبتعد وأترك لها كل شيء

على طبق من ذهب؛ لتأخذ مكاني في عمله كما أخذته في قلبه وثقته وروحه.

....

_ فقررتِ الانتقام من الجميع أليس كذلك؟

خرجت من شرودها الذي كان كتنويم مغناطيسي تحكي فيه لمودة تفاصيل لأول مرة تتجرأ على التفوه بها، نظرت إلى صبا الواقفة أمامها في ممر المستشفى بثبات وتحدٍ دون أن تشعر، لا تعرف منذ متى وهي تستمع لحكايتها، ردت على تساؤلها قائلة بندم: انتظرت مواجهته لي، التحدي الذي دائمًا ما يقابل به أي موقف، ولكنّه لم يحدث.

تحدثت مودة التي فضلت الصمت من البداية وهي تسمع عهد، وقالت بقوة لم تعتدها:

- أرسلتِ لي رسالة تخبرينني فيها بزواجه من صبا لتخربي حياته وتفككي أسرته، كان يكفي أن أعرف ذلك لأبتعد وأنهي حياتي معه، لمَ يصل بكِ الانتقام لتدمير عمله وسمعته؟! ربما استطعت أنا حينها محاسبته والثأر لنفسي كما كنتِ تريدين.

- قالت صبا باستياء: هدمتِ كل شيء بنيتماه سويًا، أفشيتِ أسرار أهم قضيتين، ولم تكتفي بذلك؛ بل فضحتِ الأمر لدى الموكلين، سربتِ أهم أوراق في المكتب، لتنتهي سمعته إلى الأبد.

_ لم أتخيل أن تحدث فضيحة بهذا الشكل ويسحب الجميع قضاياه، لم أقصد كشف أوراق القضايا، أنا ذهبت للعمل في المكتب الآخر فقط، كنت أريد أن أثير غيرته، حاولت استفزازه ليس أكثر.

- ضحكت صبا بسخرية قائلة: أجل، مكتب آخر مسؤول عن نفس القضيتين للخصوم، مصادفة غير مقصودة أليس كذلك؟! وما رأيك في الأوراق التي خرجت من المكتب، هل مصادفة هي الأخرى؟

_ أردت أن يرى ماذا سيحدث عندما أبتعد وأترك كل شيء بنيناه سويًا، كنت أريد الوقوف على قدميّ دونه لأبني حياتي من جديد وأقف في وجهه وربما أصبح منافسة له يندم ألف مرة على التضحية بي، لم أفعل أكثر من ذلك، لكنه لم يتحمل.

_ أتتصورين أن سبب أزمته القلبية ضياع قضيتين أو حتى قضايا المكتب كله؟! مسكينة عهد، غبية لو اعتقدتِ ذلك، لم يتحمل قلبه استيعاب خيانتكِ، لم يدرك عقله أنكِ دونًا عن كل من حوله طعنته في ظهره وقد آمنكِ على أسراره وعمله؛ بل كانت حياته بين يديكِ مكشوفة على مدار سنوات، غدر صديق يا عهد أبشع آلاف المرات من غدر عدو.

****

الفصل الحادي عشر

الغبار في كلّ مكان، العالم يبدو قديمًا، مشوهًا، كلّ شيء حوله ضخم وهو صغير جدًا، وكأنّه عاد طفلًا، حجرته القديمة في منزل والده، يجلس على الأرض وحده، صوت خطوات ثقيلة تقترب، الخوف يسيطر عليه، الباب يفتح ببطء، تقف على الباب، عيناها تخترقانه بنظرات لا تُحتمل، ينظر لها برهبة، لا يستطيع النطق، الكلمات تقف على شفتيه لترتعش، يشعر بالذنب على شيء لا يعرفه، خطيئة لا تُغتفر، هي كبيرة وهو صغير للغاية، لم تتحدث، ألقت عليه نظراتها وغادرت، تحرك باتجاه المرآة ليرى نفسه ويتأكد أنه مازال صغيرًا، كلما اقترب ليلمس انعكاس صورته، تراجعت الصورة إلى الخلف، كلما حاول لمسها، ابتعد الطفل أكثر، الصورة تتلاشى، المرآة تتكسر شيئًا فشيئًا بصوتٍ خافتٍ، ولكنّه يثير نفوره.

الهواء ثقيل من حوله، جسده مرهق، أصوات تشقق المرآة تحيط بأذنيه لا تريد تركه، نظرات والدته تخترق جسده، العرق يتصبب منه، يفتح عينيه بصعوبة، سقف الغرفة معتم، أغلق عينيه مجددًا، محاولًا الهروب من الصور التي تلاحقه، ولكن الأصوات داخله لا يستطيع إسكاتها.

....

تمر الأيام وكأنّها ريحٌ تحرك رمال الصحراء؛ فلا يتغير بها شيء، لا يشعر بأثرها إلا من يعيش الفقد ويتذوق مرارة غياب لا يعرف موعد العودة منه، يمر الوقت دون أن يشعر به، رغم أنّ هناك شيئًا يظهر من أعماق الماضي، ذكرى قديمة ووجه غائب، وجه لا يُنسى مع الموت، وربما يكون سببًا في باب من نار يوم الحساب، حتى وإن ظلمه، حتى... وإن... ظلمه.

أصبح رفيقًا لأجهزة الإنعاش وأسلاكها التي تربطه بالعالم تضخ فيه حياة صامتة، لا تشعره بالوقت ولا بمن حوله، في الممر الذي ينتهي بغرفته، امرأة تقف في المكان نفسه، تنظر عليه من خلف الزجاج العازل الذي فصله عن غيرها من قبل، بتأثر تمسح دموعها، ابتسمت مودة بسخرية عندما رأتها، هذا الرجل لا يزوره سوى النساء بمختلف الأشكال والأعمار، فقط نساء من حوله وقصص لنساء معه، حتى وهو غائب عن الوعي هنّ الزائرات!

اقتربت منها بخطوات احترفتها، تتوقع أن تكون عشيقة منسية بين دفاتر ماضيه، أو حتى حبيبة مخفية عن أعين حاشيته، جميعهن عابرات في حياته، تعتقد كلّ منهنّ أنّها الحبيبة الأولى والأخيرة، الحبّ الأقوى الذي لا يُنسى، أيًا كان المسمى، هي أمام سر جديد من أسراره.

دنت حتى لم يعد يفصلها عنها سوى بضع بوصات، زاد وجهها عبوسًا يصحبه دهشة، لم تكن أي شيء مما توقعته، امرأة مسنة! وجه مألوف رأته من قبل، شعرت بها السيدة التي أغرقها الحزن والحسرة وفصلها عن إدراك ما حولها، انتفضت بفزع، نظرات متبادلة وصمت يزيد الأمر توترًا، تحركت

المرأة بمجرد استيعابها وجود مودة، ابتعدت هاربة قبل أن تواجه أي سؤال؛ فلا تملك تبريرات ولا مجال للمواجهة بينهما.

وقفت بمفردها في المكان بعدما توقعت من تكون تلك المرأة صاحبة الصورة معه في طفولته، عرفتها رغم مرور الزمن على ملامحها وقد وضع خطوط أيامه على جبينها، تُحرك عينيها بين صمته وهروب الأخرى، تسأله دون كلام هل من مزيد لأكتشفه؟ ألا يكفي كلّ ما عرفته؟ أما زلت تحمل من الأسرار التي أسعى لأعرفها حتى أخفيها عن ابني فلا ألوث قلبه؟ ليجيبها صمته وحكايات الأخريات عنه، حتى ظهرت أخته في أول الممر، تقبل عليها بتوتر وقلق مسرعة تنظر خلفها مما يؤكد أنّها رأت المرأة وهي تغادر، وبالطبع تعرفها جيدًا، تعرفها أكثر من اللازم.

حنان:

سفرٌ طويلٌ كافٍ لتتغير المشاعر؛ فمثلما تقوي الغربة القلب، تجعله أيضًا يلين وينسى جراح الماضي، تصبح ذكريات ضبابية بلا ألوان، غرباء في السفر، وغرباء في الأوطان، وجوه متغيرة بملامح غريبة، حكايات جديدة توسع من الخبرات؛ فتتزايد التناقضات، ننسى ما كان لأنه لن يعود الماضي أفضل مما كان.

أجل؛ لم تمت، لم يكن يتيم الأم؛ بل ربته حتى أصبح في السادسة عشر من عمره، على أعتاب الشباب يقفز بجرأة، متفوق دراسيًا، ملتزم أخلاقيًا

ودينيًا، رياضيّ، كان شابًا مثاليًا، يرى أمه وأباه رائعين، حتى حدث ما لم يتوقعه أحد.

كان والدي يعمل بإحدى دول الخليج، أحيانًا كنا نسافر إليه في الإجازات، نعيش في ترف ونعيم عمله، محاولًا تعويضنا غيابه، وأحيانًا أخرى يصحبنا في رحلات صيفية يقضي بها معنا إجازته بشغف وفضول العيش في أجواء العائلة، لم نرَه إلا في أحسن حالاته، ضيفًا لأيام هي من أجمل أيام حياتنا، متعلق به آدم بشدة، يراه مثلًا حيًا لكلّ ما يمكن أن يكون عليه الإنسان المثالي، يحبّه بجنون فاق حدود الطبيعي، يأخذ نصائحه أمرًا، وكلامه دستور لحياته لا يقبل التعديل أو التغيير، يسير على قوانينه التي أصبحت تحكم حياته وتوجه قراراته دون تفكير، كلّ فكرة تبناها يومًا أصبحت بالنسبة لآدم حقيقة مطلقة، هو البوصلة التي تحدد خطاه وتوجه مساره، يصنع كلّ إنجاز من أجل أن يرى الفخر في عينيه، يسير وفقًا لما غرسه فيه أبي دون تفكير، حتى بات من الصعب أن يفصل بين أفكاره الخاصة وما عرفه عنه.

كان حنونًا أكثر من أمي التي بررت ذلك بغياب والدي الدائم وأخذها دور الأم والأب معًا، لم يكن آدم طفلًا مشاغبًا ولا شابًا متهورًا، ومع ذلك لم يلقَ منها سوى التوبيخ على أتفه الأشياء، أكبره بسبعة أعوام، كنت أعي جيدًا مشاعره المتناقضة، وسخطه الدائم على والدتنا، وخاصة في سن المراهقة، ولكنّني لم أتخيل أن يصل الأمر إلى الاعتداء عليها بوقاحة، منعته بصعوبة من أن يزيد تطاوله عليها، وقفت أمامه أدفعه أن يبتعد وألا يحمل

يده وزر العقوق، كان يحبني ويقدرني بشدة ما جعله يتراجع؛ فدائمًا كنت أكثر حنانًا وتفهمًا لمشاعره منها، صدمني أنّ أخي المهذب يفعل بأمه ما رأيته بعيني، حاولت الحديث معه، فهم ما الذي جعله يصل إلى هذه الدرجة من الحنق، لكنه فضل الصمت، أيام لا أدري هل دخل في صدمة عصبيه أفقدته النطق أم أنه يهرب من المواجهة، حتى وجدت أبي قد عاد على غير موعده من السفر، لم أفهم شيئًا في البداية، ويا ليتني ما فهمت أبدًا.

أخبر آدم أبي ما جمعه من معلومات عن والدتنا، تتبعها لفترة بعدما شك في نيتها، وقد سمع بالمصادفة مكالمة تعد الطرف الآخر على الهاتف بقرب الخلاص من سجن والدي، فلقد أوشكت على إنهاء كلّ الأوراق اللازمة لتُأمن نفسها من أملاكه، استغلت توكيلًا كان قد كتبه لها أبي منذ فترة لإنهاء بعض الإجراءات في غيابه، رأت أنّ من حقها تأمين مستقبلها من أموال سفره التي تحت يديها، وبعدها تطلب الطلاق لتعيش ما لم تعشه معه وهو غائب في سفر يسعى ليوفر لنا به الراحة وترف.

حاول آدم مواجهتها ذلك اليوم الذي أبعدته عنها وأنا لا أفهم سببًا لما يحدث، وإن عاد الزمن بعد ما عرفته سأفعل ما فعلت، بالطبع اتهمته هي بالجنون والعقوق وسوء النية، ساءت العلاقة بينهما، راقبها وجمع الأدلة لإثبات إدانتها بكل الطرق، وأرسل لأبي تسجيلات وصورًا لأوراق وجدها في غرفتها تجهزها لنقل ملكية الشقة إليها، لم يكن والدي بمتهور أو متسرع في اتخاذ أي رد فعل، أمن نفسه، أنقذ ما يمكن إنقاذه من أملاكه

ومدخراته التي تحت يدها دون أن تشعر، وبمجرد علمها برجوعه واكتشافه أمرها، اختفت تمامًا، هربت ولم يعد لها أثر، وتركتنا للفضيحة والخزي، نعيش مشوهي النفس، مهزوزي الرّوح.

أنهك المرض والدي رغم محاولاته الظهور بقوة وكبرياء، رفع قضايا تجعلها لا تستطيع التحرك أو التصرف في أي شيء، لم يطلقها حتى لا تستطيع الزواج مرة أخرى، ورغم أنه حاصرها وضيّق الخناق عليها بالقانون دون أن يلوث يديه ويهين نفسه في البحث عنها، فقد الحماس للحياة، ظلت حالته تتدهور كلّ يوم عن الآخر، يرفض التنازل عن كلّ القضايا المهينة في حق العائلة رغم إلحاح أهل والدتي وأهله، حتى توفي وتركها موصومة بعار الناشز الخائنة.

حاولت العودة بعد وفاته، ولكنّها ماتت في أعيننا وانتهى الأمر، الحياة والموت ليست بالوفاة فقط، فكثيرًا من البشر حولنا لا يستحقون الحياة، أو على الأقل لا يستحقون الحياة معنا، جريمتها لا تغتفر، لم تكن في حق والدي فقط، ولكنّها في حق نفسها قبل أن تكون في حقنا نحن أيضًا، مهما بررت وحاولت توضيح أسباب واهية، لن تعيد الزمن إلى الوراء لترجع أسرتنا كما كانت، وتغسلنا من إحساس الخزي، لن تستطيع مهما فعلت أن تعيد لنا ثقتنا بها كأم بعدما هربت وتركتنا نواجه أنفسنا قبل المجتمع، لن تعود لتعيد لنا الثقة فيمن حولنا بعدما اهتزت صورة أهم الثوابت في أعيننا.

تغير آدم منذ ذلك الحين حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، قرر الانتقام منها في كلّ فتاة يعرفها، فسدت أخلاقه وأصبح مولعًا بعلاقات النساء، يستمتع بإيقاعهن في حبّه، ويتلذّذ عند البعد ومحاولاتهن السعي وراءه والوصول إلى قلبه، أو ربما كان يبحث بينهن عن ذلك الحنان الذي فقده فيها، والاهتمام الذي لم يجده، نصحته بكلّ الطرق، كنت أذكره بأحلام والدنا من أجله، وأنّ هذا الطريق لابد أن يكون له نهاية، ونهايته لا أتمناها له أبدًا؛ فعقاب الله حتميّ، ودائمًا ما يجيب عليّ بالإجابة نفسها.

_ لن أنسى أبي مهما مرّ الزمن، سأجعله فخورًا بي ما حييت، ولكن ليس لذلك علاقة بحياتي، إنّها مجرد تسلية، هواية، متعة آخذها من الحياة، أنا لا أشرب المخدرات ولم أقرب الخمر كغيري، جميعهن قبلن وجودي بكامل إرادتهن، ما أفعله لن يضرّ أحدًا ولا يضرني بشيء، هناك غيري يفعلون كلّ الموبقات والمعاصي، وأنا أعرف ما يجب وما لا يجب فعله، لا تحملي همًا.

لم يكن ليعطيني فرصة الرد عليه، دائمًا ما ينسحب بسرعة من أي حوار، مرت الأعوام ثقيلة، أنهى جامعته وبدأ في رحلة العمل، تزوجت أنا من ابن عمي بعدما استقل آدم بحياته، سافرت مع عائلتي وتركته داعيةً الله له بالهداية، لا يمر يوم إلا وأطمئن عليه، نتبادل الحديث في كل فرصة، حتى جاء اليوم الذي أخبرني فيه أنه قطع علاقته بكل الماضي منذ أن أصبح أبًا، قال براحة وتفاؤل: أريد أن أكون مثلًا أعلى لابني كما كان أبي، لن أخذله في تربية طفلي ليكون خير خلف.

ظلت والدتنا ميتة في نظره، ولكنّي رغم كل شيء استجبت لتوسلاتها بالصفح والسماح، إنّها أمي مهما حدث، أخطأت؛ بل أجرمت، ولكنّها أخذت عقابها، نبذها الجميع، لن تستطيع جني أي شيء من وراء والدي، حتى بعد أن مات وقد كتب كل أملاكه لنا، تواصلت معها دون علم آدم منذ فترة، هزمها المرض وشق عليها ثمن العلاج، فلمَ المكابرة في البعاد؟!

عدت بالأمس من السفر، حضرت معها ولم أتخيل أن أجدك في مثل هذا الموعد، جاءت لتراه من بعيد كما كانت تفعل دائمًا، خشيت أن يشعر بها وتتدهور حالته، فضلت الوقوف بعيدًا والدعاء له ربما يتقبل الله دعواتها كأم! بالطبع عرفتكِ، حضرت زفافكما ترتدي النقاب خشية أن يراها أحد، دائمًا كانت تختفي من أمام العيون وخاصةً عيون آدم، كثيرًا ما حاولت رؤية نور الدين والتحدث معه دون أن يعرف أنّها جدته، تعيش كاللصوص تسرق حقها في رؤية أحفادها، حقها الذي تخلت عنه وتركته بكامل إرادتها ولم يفرضه عليها أحد.

....

_ بهذه السهولة، يا حنان! تخون، تسرق وتغدر، تكون سببًا في انهيار أبنائها وتحطيم الثوابت في حياتهم، اهتزاز نفوسهم وشخصياتهم، تترك جرحًا في نفوسهم من الصعب مداواته، ثم تعود وتطلب السماح.

مسحت دمعة سقطت رغم محاولة الظهور وكأنها تجاوزت الأمر منذ زمن، وقالت: الله يسامح ويغفر يا مودة، فهل لنا أن نغلق أبواب الرحمة في وجه من طرق باب الندم؟!

****

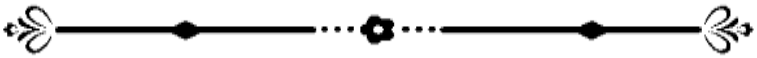

الفصل الثاني عشر

ضوضاء في كل مكان، ضجيج لا يتوقف، أصوات القطارات في المحطة كأنها زئير يخرج من المعدن، كلما اقترب قطار ترتجف أوصاله، الناس تتحرك بسرعة وعشوائية في كل مكان، وجوه مشوشة، يبحث عن مجهول ينتظره، يجلس على كرسيه وحيدًا، يراقب كل من حوله، لا أحد يلتفت إليه ولا يهتم بوجوده، القطارات تتسارع على الوصول لوجهة لا يعلمها، لا يفهم لماذا هو هنا ولا أين يذهب؟! يعرف بين الوجوه الكثيرات، كلّ من مرّ في حياته من نساء تعبر أمامه دون اهتمام، تحمل حقيبتها وتمضي ولا تلتفت إليه، كلما حاول أن ينادي على إحداهن، صوته لا يصل، وكأنّ الضوضاء تبتلعه، يظل وحيدًا لا يعرف ماذا ينتظر، الأضواء تنطفئ شيئًا فشيئًا، الناس تتلاشى، المكان يصبح خاويًا تمامًا، يبقى وحيدًا في الظلام، لا صوت، لا حركة، لا حياة، يشعر بالبرد، بالوحدة، يسمع صوت خطوات خافتة تقترب منه، يلتفت يبحث عن مصدرها فلا يرى أحدًا، الصوت يقترب، لا يستطيع تحديد المصدر، لا يقدر على الوقوف من مكانه، وكأنه التصق بالكرسيّ، يريد أن يعرف من منهنّ عادت إليه، تقترب الخطوات، يرتجف جسده، يخشى مواجهة المجهول.

يريد أن يخرج من ثباته، يتحرك، يفيق ليبحث وراء كلّ واحدة عرفها يومًا، أن يكتشف من منهن كانت صادقة معه ولن تخذله، يأخذ أنفاسه بصعوبة، يحاول التنفس وفتح عينيه ليرى النور، وكأنّ ثقلًا على صدره لا يستطيع إبعاده.

....

أمام المبنى الذي يضم مكتب المحاماة الخاص بآدم، وقفت مودة لا تفهم سبب إصرار عهد على مرافقتها إليه، كادت ترفض لولا أنّ فضولها لم يترك لها حرية الاختيار، لم تدخل المكان منذ سنوات طويلة، كانت تتعمد الابتعاد عن كلّ ما يخص عمله وحياته خارج المنزل، ربما لأنّها تفهم طبيعة شخصيته ومعارفه التي تستفزها؛ فقررت أن تنأى بنفسها عن كلّ ما يعكر صفو حياتها.

دخلت عهد المكتب بتأهب وثبات، رغم أنّها خرجت منه مهزومة منكسرة، اندهشت مودة خاصة وأنّها عرفت ما حدث بسببها؛ فكيف لها أن تتحلى بكلّ تلك الثقة؟!

لم يكن هناك أحد في استقبالهما سوى الساعي على غير المعتاد، تساءلت مودة عن غيداء السكرتيرة الخاصة بآدم؛ فمن المفترض أن تكون على مكتبها بالقرب من المدخل، لم تجِبها عهد وتحركت باتجاه غرفتها، دفعت الباب بعنف دون مبرر ونظرت خلفها على مودة وهي تشير على غيداء قائلة: ها هي تجلس على مكتبي.

وقفت الفتاة مفزوعة في مكانها، وقد أصابها الارتباك بمجرد رؤية عهد أمامها، تنتقل بعينيها بينهما؛ فأردفت عهد دون انتظار أي تعليق: بأي حق تدخلين غرفتي في غير وجودي.

ابتلعت ريقها وقالت بتلعثم: ألم تتركي المكتب؟!

كررت عهد السؤال ولم تهتمِمْ لحديثها قائلة: من أعطاكِ الحق بدخول غرفتي؟

لم تجد إجابة ترد بها عليها، شحبت ملامحها وهربت الدماء من وجهها؛ فقالت عهد بتحدٍ وهي تنظر إلى مودة: الأستاذة استغلت غيابي وسرقت أوراقًا مهمة لبعض القضايا وباعتها للخصوم، ليعتقد الجميع أنّني السبب.

_ كاذبة لم أفعل ذلك.

لم تعرها اهتمامًا، تقدمت بثقة نحو مكتبها، أبعدت غيداء بعنف من طريقها وفتحت جهاز الكمبيوتر الموجود على المكتب بكلمة السر الخاصة بها، دقائق مرت في صمت لا يسمع فيه سوى صوت أصابعها على لوحة مفاتيح الحاسب، أدارت شاشته باتجاه مودة وأشارت لها قائلة: لحسن الحظ لا أحد يعلم أنّ غرفتي وغرفة آدم بهما كاميرات مراقبة لا يتابعها سوى أنا وهو فقط.

نظرت مودة على الشاشة لتشاهد غيداء وهي تجمع أوراقًا من ملفات مختلفة، وتضعها في حقيبتها وتغادر المكتب.

همت غيداء بالمغادرة، فأمسكت عهد ذراعها بعنفٍ قائلة: هل تتصورين أنّني سأتركك تغادرين بفعلتك هذه السهولة؟

قالت مودة بهدوء: اتركيها تغادر.

_ أتركها؟! هل تدركين ما الذي تسببت به؟ لقد جعلت آدم يشك في ولائي لأول مرة في حياته، لقد كانت السبب في كلّ شيء.

_ لم يعد هناك داعٍ لمحاسبتها، لقد حدث ما حدث وانتهى الأمر.

ابتعدت الفتاة بسرعة بعدما التقطت حقيبتها ولاذت بالفرار؛ فصاحت عهد قائلة لمودة: هل هذا كل ما استطعتِ فعله؟

_ ما الذي يمكنني أن أقوم به؟! وبماذا سيفيد توبيخها؟ أم كنتِ تنتظرين أن تخبرني هي الأخرى عن شيء جديد لا أعرفه، لا أريد أن أكتشف أنها تحمل أسرارًا لعلاقات جديدة، يكفيني كل ما عرفت، كفى... لم أعد أتحمل أكثر من ذلك.

أنهت كلامها بحسم وتحركت ببرود تغادر المكتب وتركتها تقف وحدها بإحباط ومشاعر هزيمة جديدة تتملكها.

قبل أن تصل مودة إلى المصعد، سمعت صراخًا قادمًا من الداخل، هرولت مسرعة بفزع؛ كل ما في عقلها أن تلك المجنونة أقدمت على فعل شيء بنفسها، وما إن عبرت باب المكتب حتى توقفت لحظات مصدومة مما تراه، عهد على الأرض ممسكة بشعر غيداء، تنهال عليها ضربًا بكلّ ما أوتيت من قوة، وكأنّها تستعيد سنوات من الغضب المكبوت، لسوء حظ التعيسة

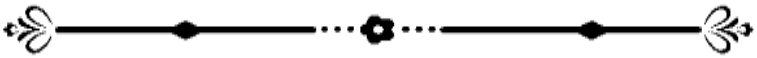

التي كانت ما تزال بالمكتب تجمع أغراضها حين عثرت عليها عهد، وانقضت فوقها كصقر جريح استطاع أخيرًا أن يعثر على فريسة ضعيفة يشبع بها جوعه.

تصلبت مودة دقائق لا تستوعب ما يحدث، وما إن أدركت خطورة الموقف وأنّه أكثر جنونًا من تفكيرها في الانتحار، حتى حاولت التدخل لإنهاء هذا العبث الذي يحدث أمامها، قبل لفت الأنظار في المبنى وحدوث فضيحة من نوع جديد هي وابنها في غنى عنها.

حاولت تخليص غيداء من بين يديها، ولكنّها كانت في حالة من الغضب لا تعي معها ما تفعله، لم تكتفِ عهد بكفيها وأظافرها التي استخدمتها كمخالب طير جارح، تنهشها بلا هوادة، كأنّها معركة حياة أو موت، ولا عندما انحنت فوقها تنهش بأسنانها فخذها، عضتها بشراسة حتى تترك بصمتها عليها إلى الأبد، ليزداد المشهد سوءًا وقد خلعت حذاءَها وانهالت عليها ضربًا مبرحًا في كلّ مكان استطاعت الوصول إليه بلا رحمة.

استطاعت مودة والساعي تفريقهما والعزل بينهما بصعوبة، وقفت غيداء تلهث، تمسح دموعها بظهر يدها، وما إن التقطت أنفاسها حتى قالت بصوت متهدج: يستحق ما فعلت، جميعكم تستحقون، لقد أحببته ولم يشعر بي... عشقته وأخلصت له ولم يلتفت... كنت على استعداد أن أفعل أي شيء يطلبه مني... ولكنّه لم يرَني من الأساس.

تبادل الجميع النظرات، صدمة جمدت ملامحهم للحظات، كيف غاب عنهم ذلك السبب الذي لا شك شعر به آدم؛ فكم هو خبير في مشاعر النساء! يقرؤها كما يقرأ قضاياه الشائكة بسهولة دون معاناة، ولماذا ستنجو من تعمل معه يوميًا من الوقوع في فخ حبّه، وهو الذي يجيد نسج الكلمات المعسولة كشباك العنكبوت؟ فدائمًا حديثه مغناطيس يجذب القلوب دون استئذان، وكيف لهذه الصغيرة أن تدرك ما لم يدركه الأكثر منها خبرة وهي التي تبدو ضعيفة تبحث عن أي بادرة اهتمام؟ هل وحدها ستفلت من سحر جاذبية كلماته الذي يسقط الجميع فيه دون عناء؟!

فجأة، أيقظ حديثها شرارة جديدة تطايرت في المكان، بدأ الصراع وكأنّها كانت مجرد استراحة لالتقاط الأنفاس، ولكن هذه المرة بقيادة مودة التي خلعت حذاءَها هي الأخرى وبدأت المعركة غير العادلة، تتقاذف فيها كلّ ما تلتقطه الأيادي، يقف الساعي بينهن يتلقى ضربات لا يعرف من فيهن مصدرها ومن المقصود! صراخ مختلط بين التهديد والوعيد يتطاير في الهواء مع بقايا الحقائب والأحذية، تحاول كلّ واحدة أن تكون الفائزة في معركة هزلية يملؤها العبث والجنون، سببها يصارع الموت على فراشٍ في أحد المستشفيات، ربما يقف قلبه الذي يتصارعن من أجل الفوز به في أي لحظة دون أن يشعر به أحد.

....

بالقرب من غرفته حيث تتجلى الأسرار دون عناء؛ فلمَ السعي بعيدًا والكل في محرابه يطوف، حتى وهو غائب عن الوعي؟ يطمئنها الأطباء طالما أجهزة جسده تستجيب دون مراوغة أو اعتراض، تجلس صبا التي اعتادت وجودها في موعد الزيارة، واختفت عهد عن الأنظار بعد أن أخرجت غضبها فيمن تراه يستحق، تحاول إصلاح ما أفسدته في لحظة حمقاء جعلت أخرى تستغلها، فركزت اهتمامها على المكتب حتى يجد كلّ شيء على ما يرام بعد عودته.

فجأة وقفت صبا بتأهب وهي تنظر لمن تتقدم نحوهما من بعيد، تسير بخطوات متحدية في خيلاء وغرور، عرفتها مودة رغم أنّها المرة الأولى التي تراها فيها، إنّها صاحبة إحدى الصور في درج الأسرار، ذات البشرة السمراء هادئة الملامح، والعينين الخضراوين اللامعتين ببريق الجنوب، وكأنّها أميرة من مصر القديمة، خرجت من بوابة الزمن لتزوره في معبده حيث يعتكف ليقيم صلاة الغفران.

لم يستمر الصمت كثيرًا، لم تتركها صبا لفرض التوقعات، فلقد صاحت باعتراض: ليال، لماذا أنتِ هنا؟!

_ ولماذا لا آتي؟! أريد أن أرى آدم وأطمئن عليه.

وقفت مودة بصدمة بعدما لم يعد هناك شك فيمن تكون وقالت: ليال من؟! ألم تمت؟ أخبرتني أنه زار قبرها لسنوات وبكى فراقها أيام وليالي! أكنتِ تكذبين عليّ؟

_ لم أكذب مودة، هي من قررت الموت أمامه حتى تعيش حياتها بعيدة عنه، ماتت عنده لتستطيع الزواج ممن يؤمن لها مستقبلها، تتخلص من مطاردته وربما تهديداته لو علم بأمر زواجها من غيره، وللأسف ساعدتها أنا لتتقن الخدعة.

_ لا يا صبا، لم يحدث، فعلت ذلك حتى يُكمل حياته من بعدي، حتى لا يتهور في مواجهة أهلي؛ فيقضون على مستقبله بكل سهولة.

نظرت مودة لصبا بعدم فهم قائلة: لحظة، ألم يرَها في المستشفى بين الحياة والموت؟ حضر جنازتها وزار قبرها، لقد رأيت صورة شاهد القبر بمكتبه يحتفظ بها كصورها معه، ألهذه الدرجة أتقنتِ الخدعة؟

ليال:

كانت ابنة عمي، نفس العمر، قريبة من ملامحي بحكم الوراثة التي أخفت اختلافاتها أجهزة العناية المركزة، مريضة سرطان، وقد أصبحت في مراحله الأخيرة، أكد الأطباء أنها تحتضر، هيأ له الموقف أنها أنا، فعاش وهم اللحظة؛ فالكل في حضرة الموت يرهب الموقف مهما كان الميت، يعرف أبي، عمها الذي انهار بالتأكيد، اعتقد أنّ والدتها هي أمي فلم يكن يعرفها من الأساس، كان من حسن الحظ أنها نفس الاسم، تكبرني بعامين، من شدة تعلق أبي بها أسماني على اسمها، مجرد فكرة طرأت على عقلي بتهور، لم أكن

أجزم نجاحها، ولكنّه قد حدث، أعمى الحزن بصره عن الحقيقة، ونجحت الخطة.

سنوات وأنا أحاول نسيانه، ينفطر قلبي كلما رأيته يزور قبري الذي لم أدفن بعد فيه وأنا حية أرزق، أقاوم ألا أقارن بينه وبين زوجي، أجل، تزوجت بعد عام من وفاة ليال، لم يكن الأمر سهلًا عليّ أبدًا، كيف أنساه بعد كل ما عشناه معًا؟ كانت ذكرياته أقوى من أن أتغافل عنها أو أنساها، مشاعره نحوي كانت صادقة مخلصة لدرجة أنها وسمت قلبي بطريقته في الحبّ التي لم أستطع التخلص منها، كلّ لحظاتنا معًا كانت تتردد في أعماقي بلا رحمة، صداه بداخلي لا يفارق روحي، بصمته في حياتي تذكرني كم كان حبّه جميلًا وروحه صادقة.

حاولت التأقلم مع حياتي الجديدة، ولكن من تزوجته كان عكسه في كل شيء، كان قاسيًا، غليظ الطباع، عنيفًا، يده تسبق لسانه، وكأنه يتعمد معاقبتي على ما فعلته في آدم، استحالت العشرة، ونجحت أخيرًا في الخلاص منه بعد خمسة أعوام عشت نادمة فيها على طاعتي لأهلي وهروبي من أعين الإنسان الذي أحبني بصدق.

عشت على أمل أن يغفر لي آدم تهوري، أن يسامحني ونعود لعهدنا القديم عندما يكتشف أني مازلت على قيد الحياة، أن يتفهم ما فعلت من أجله ومن أجل نفسي، حدثت صبا بسعادة أخبرها انقضاء فترة عدتي وأني أستعد لمقابلة آدم، لكنّها فاجأتني، ظننتها صديقتي وآمنتها على سري فكانت أكبر

خائن لي، سبقتني إليه عندما علمت بنيتي، أخبرته هي قبل أن أصل إليه وأشرح له أسبابي وأرى السعادة في عينيه بعدما ملأهما الحزن لفراقي.

....

ضحكت صبا بسخرية قائلة: أكنتِ تتصورين أنه سيسامح بهذه السهولة؟! يعود العاشق الولهان المتيم بعينيك، يرتمي تحت أقدام معشوقته العائدة من العالم الآخر من أجله، تبًا لكِ، الميت لا يعود ليال، وأنتِ متِ منذ زمن، متِ مرتين، مرة عندما قهرتِ قلبه على فراقك، ومرة عندما اكتشف كذبك وخداعكِ.

_ كنت أريد له أن يحيا دون الشعور بالتقصير في حق حبنا.

ضحكت صبا بسخرية وهي تقول: تفكيرك دائمًا أناني، هذه هي طبيعتكِ لا أعرف كيف لم يكتشفها طوال معرفته بكِ، غادري ليال، فلم يعد لكِ مكان بقلبه ولا حياته، جميع الأماكن أصبحت مشغولة عزيزتي.

_ لن أبتعد إلا عندما أطمئن عليه ويعلم كل شيء مني، سأتحدث معه ويسمع صوتي ليعود للحياة، آدم لم يحبِبْ أحدًا مثلما أحبني.

ضحكت مودة لأول مرة بشدة، لم تستطع التوقف عن إطلاق الضحكات، وكأنّها فقدت السيطرة على نفسها، نظرت صبا إليها بأسى وقالت لليال: هذه زوجته وأم ابنه، فما رأيكِ؟ أما زلتِ تريدين أن يسمع صوتك؟

_ أنا قبلها في قلبه، لم يحبِبْ أحدًا مثلما أحبني، من حقي قبل أي واحدة أخرى أن أكون بجواره.

مسحت مودة دموعها التي لا تعرف كيف صاحبت الضحكات وقالت بسخرية: اتركيها تدخل إليه، ربما يشفى على يدها الكريمتين.

_ لن تدخل، إنها مخادعة، لن أتركها تصل إلى غايتها، مستحيل أن يستجب لخداعها أبدًا.

_ سأدخل يا صبا؛ لأنكِ إن لم تتركيني سأخبره عندما يفيق بكذبك عليه، أنا وأنتِ لا نختلف كثيرًا، بالعكس أنتِ من استغللتِ حالته بسبب فراقي للاقتراب منه، وبعد ذلك أفشيتِ سري لتكسبي قلبه.

نظرت مودة إلى صبا بريبة قائلة: أيمكن أن تكوني أنتِ الأخرى مخادعة؟

قالت ليال بتحدٍ: لقد اتفقت مع شخص ليلتقط صورًا لآدم معها، أتقنت اللعبة ونجحت في إيقاعه لتتزوج منه سريعًا قبل أن أصل إليه.

وأمام صدمة مودة ضحكت صبا بسخرية وهي تحرك رأسها وتضرب كفًا على الآخر بغير فائدة، جلست بثقة وهي تنظر إليها بثبات، وأشارت لمودة أن تجلس بجوارها، حتى تخبرها الحقيقة.

****

الفصل الثالث عشر

صبا:

كنتُ مؤمنة أنّ أي كذبة مهما طالت مدتها سيأتي يوم وتظهر فيه الحقيقة، قررت بعد خمسة أعوام أن أكون أنا المحرك لكشف ذلك السرّ، حتى لا يراني يومًا شريكة في إخفائه، لا أنكر، كان هدفي التقرب منه أكثر، أو بمعنى أدق التقرب من قلبه، أن يصبح لي مكان بداخله ليس لغيري فيه حق، أعرف أنه مخلص في الصداقة كإخلاصه في الحبّ، كنت واثقة أنّ تلك الحقيقة رغم أنّها ستوجعه إلا أنّها ستكون فارقةً في علاقتنا، لابد أن أُثبت إخلاصي له قبل أن يفوت المعاد ويعرف من غيري، لأنّه مهما طال الزمن سيعرف في كلّ الأحوال، هيأت له الموقف جيدًا، مهدت وزدت في تمهيدي، منذ أن اقتربنا وقويت علاقتنا وهو يعلم أنّني أخفي عنه شيئًا لا أستطيع قوله، أخبرته كثيرًا أنّه سيأتي الوقت المناسب ويعلم ما أخفيه، ووعدته أن يعلمه مني قبل أي شخص مهما كان، يعرف أنّ هذا السر يؤرقني، وأني لا أستطيع إخباره به، حتى حان الوقت.

_ آدم، لم أعد أستطيع أن أخفي عنك أمرًا مهمًا يخصك، يجب أن تعرف حتى يرتاح قلبي.

ضحك ببساطة وكأنّه لا يفرق معه أي شيء سيعرفه مهما كان وقال: أليس مبكرًا، انتظري عدة سنوات أخرى، أنا لست متعجلًا معرفة أي شيء.

_ ولكن ما أخفيه آدم يهمك معرفته، يخصك أكثر مني، وربما يكون سببًا في بعدك عني، ولكنّني يكاد يطير عقلي كلما وجدتك تتذكرها بقلب موجوع على فراقها لا يبرأ أبدًا.

نظر لي وما زالت بقايا ابتسامة على وجهه وحرك رأسه بعدم فهم؛ فأخبرته أني قبل أن أخبره ما أخشى، يجب أن يرى أولًا بعينيه، علم أنّ هناك شيئًا لا أستطيع قوله، ففضلت تلك الطريقة ربما تسهل عليّ الأمر، واستجاب دون تعليق، صحبته إلى حيث تسكن ليال، كنت أعلم موعد زيارتها لعائلتها كلّ أسبوع، ظللت بجواره في سيارة الأجرة لا يفهم لمَ ننتظر في هذا المكان، حتى ظهرت تمسك بطفليها بسعادة، يتقدمها زوجها الذي فتح باب السيارة ليركب الطفلان بالخلف، ثمّ ركبت بجواره بثقتها المعتادة نفسها.

لم يبدِ أي رد فعل، كانت عيناه مثبتة عليها، وكأنّه تمثال بلا روح، يضع يده على صدره وكأنه يمسك بقلبه الذي يؤلمه قبل أن يخرج من مكانه، فارًا يجري خلفها ليفهم منها لماذا فعلت ذلك به.

أخبرته كلّ شيء قبل أن تقرر الطلاق وتحلم بلقائه، أنهيت الأمر دون أن أعرف نيتها التي لم تغير من شيء في علاقتي به، وليس كما اعتقدت أني سبقتها إليه، كنت أتخلص من حبها في قلبه ليس خوفًا من عودتها؛ فأنا أعرفه جيدًا وأعلم أن ذلك الذنب أبدًا لن يغفره، تخلصت من ذكراها ليراني

أنا ويضع مكانها من يستحق، نوع الحبّ الذي أرغبه كان هو نفسه حبه القديم لها، وهذه كانت أحلامي التي أسعى إليها، أن يتحرك قلبه من أجلي.

ظلّ صامتًا لم يتحدث، تحركت السيارة ونحن خلفها لفترة حتى انحرفت عن طريقنا، وشققنا نحن طريق آخر اعتدناه على ضفاف النيل، وقفنا دقائق من الصمت، ينظر إلى المياه وكأنّه في حداد على سنوات عمره معها وبعدها، صمت طال واحترمته، انتظرت حتى يستوعب الأمر ويستطيع الحديث، لم أجرؤ على التفوه بأي كلمة؛ فما يمر به ليس بالهين، حتى صاح بلا أي حسابات للمكان أو المارة.

_ لمَ؟ كنت سأبتعد إن طلبت ذلك، كنت سأختفي من حياتها، لماذا تستحل وجع قلبي لفراقها؟ كيف هان عليها أن تعذب قلبي بعد أن أعطيتها الأمان؟ لم آمن لأحد قبلها ولا بعدها، لم أخنها أو أخن حبها، كنت راهبًا في محرابها، لمَ استحلت كل تلك الدموع التي ذرفتها عيناي حزنًا عليها؟ لمَ استباحت وجع قلبي عليها؟ ألوم نفسي كل يوم وأنا أشعر أن فراقها عقاب من الله لي، أنّ حبّي لها كان بلاءً عليها وعلى حياتها، كنت أراها ملاكًا لا تستحق واحدًا مثلي؛ لذلك خلصها الله مني لتعيش بين الحور العين، وأتعذب أنا لفراقها في الدنيا، كانت لي الأمل، طوق النجاة الذي سينتشلني من ماضٍ لعين، ويعطيني حبًّا أفتقده، كنت أدعو الله أن تكون لي في الجنة بعدما استحال في الدنيا، كل ذلك كان مبنيًا على كذب؟

لم أتمالك دموعي أمام حالته وكلماته وقد شاهدت لسنوات كيف يعيش، حاولت أن أقترب منه، أن أمسك يده ليهدأ، ولكنه ابتعد عني بنفور، بعدما شعرت ببرودة جسده، كانت المرة الأولى التي أتجرأ فيها وأحاول الاقتراب منه، كنت أتمنى أن يشعر بلمساتي ربما تبث في جسده الأمل.

نظر إلى السماء وأغمض عينيه بحسرة وصرخ بألم آهة ارتدت في قلبي لم تخرج منه لأيام، أسمعها كلما حاولت النوم على أمل أن يعود لي كما كنا، لقد اختفى وكأنّه مرّ عليّ في حلم ليلة باردة ليبث الدفء في قلبي ويبتعد، تركني لا أشعر سوى ببرودة كفه الذي حاولت لمسه على غفلة، ولم يعطني الفرصة.

ظهر بعد مدة وكأنّه لم يكن هناك أي شيء قد حدث، تجاهل ذلك اليوم الذي عرف فيه الحقيقة، لم يعد يذكر ليال بكلّ ما تحمله قصته معها حلوها ومرها، كان يجيد فن التجاهل ويبدع في التعامل به لدرجة تجعل من أمامه يشك أنّه فقد الذاكرة أو ربما لم يحدث شيء من الأساس، تعاملنا لبعض الوقت بفتور ورسمية لم يتقبلها قلبي ولكنّها رغبته، المهم أنه عاد، ظهر في حياتي مرة أخرى، وسأتقبل عقابه لي مهما كان، يعاقبني على إخفائي عليه أم اشتراكي في خداعه؟ لا أعرف، ومع ذلك كان داخلي يقين أنه سيأتي اليوم ويسامحني ويعطي لقلبي فرصة حبّه كما أريد، حتى بعدما أخبرني أنّه تزوج وأنجب طفلًا، وكأنّه ينتقم لنفسه على سنوات قضاها في حبٍّ زائفٍ

وتضحية بلا فائدة، ظلّ بداخلي ذلك الحلم الذي يكبر كلّ يوم أكثر رغم برودة معاملته وجفاف مشاعره تجاهي.

مرت الأيام وازداد ارتباطنا، لم يطل العقاب الذي فرضه على علاقتنا، ولا الفتور في تعامله معي ومحاولاته أن يبدو رسميًا، فسرعان ما زال أثر ليال وفِعلتها، فما بيننا كان أقوى من محاولات الابتعاد وعقاب التجاهل، ربما تفهم موقفي وسبب ترددي، شيء خاص بيننا كان يكبر في قلب النيل لا يعلمه سوانا، علاقة من نوع لم يقابله من قبل، ولم يحاول أن تكون كغيرها، تعلق بي دون أن يشعر كما تعلقت به، صداقتنا كانت طفلًا بريئًا يكبر كجنين في رحم القلب، يحلم أبواه أن يعيش في أمان وطاعة الرحمن، توارد أفكار ومشاعر كان يدهشنا، لم نختلف أبدًا في رأي أو تشتد بيننا وجهات النظر، أتفهمه بكلّ حالاته كما يتفهمني.

جاء اليوم الذي قررت فيه أن أقطع عليه كلّ طرق الهروب من حبّي، أنهي وإلى الأبد فكرة أننا أصدقاء، أنا لا أريد هذا الوصف ولا أعترف به من الأساس، لابد أن أجعله يدرك كم هو قريب خطر فراقي، أقرب مما يتخيل، فراقي الذي لم يفكر فيه يومًا، ربما يحدث بالزواج في أي وقت من أي طارق للباب يقبل به أهلي، أو كما خططت أن يحدث، صور لنا معًا يهددني بها شخص أضمن ولاءه لي، أُرسلها إليه مع رسائل التهديد، بالطبع فكرت أنّ هذا الشخص مهما كانت ثقتي به ربما يومًا يخونني، وها قد فعل وأخبر ليال، ولكنّني قررت حينها أنه لو لم تسر الأمور كما أريد، سأخبر آدم بكل

شيء، لن أخدعه وأعيش معه بكذبة اخترعتها في وقت شعرت فيه بالحرمان من حبه، أخبرته كل شيء بمجرد أن تمت خطبتنا، وعلى غير ما توقعت -هو دائمًا على غير المتوقع- رنت ضحكاته حولي وأنا مندهشة لا أفهم سببها، ضحك بشدة وأخذ يصفق وكأنني أخبرته إنجاز ما حققته، يحييني على ما فعلت بانبهار وسعادة غريبة، وأنا أنظر إليه بشك لا أعي أهو مدرك ما أخبرته به أم يظنني أمزح؟

_ ممتازة صبا، حقًا أنتِ مذهلة، رائعة، أعجبتني الخطة.

_ ألم يضايقك ما فعلت؟ خدعتك، كذبت عليك.

_ بصرف النظر أني لا أحبّ الكذب، أكرهه ولا أطيقه، يسقط من نظري أي إنسان يكذب عليّ حتى وإن كان كذبه لا يضر، ولكن لأنّ هذه أول وآخر مرة تفعلينها، وأنا حقًا ممتن لفكرتك الشيطانية التي ستجعلني أستأثر بكِ وحدي، أخطفك بعيدًا عن العيون، لا أريد أن يعرف طرقكِ أحد غيري، ألا يقربكِ سواي، أن أكون أنا الأول والأخير الذي تتفتح عينيكِ عليه في كلّ هذا العالم السيّئ، حتى وإن كنت أنا الأسوأ، أنا أناني في حبّي عزيزتي، وأنتِ أعطيتني الفرصة بكامل إرادتك وبتخطيط محكم منكِ، وها أنا بريء من ذنبك ومسؤولية حبكِ لي، وعليّ استغلال تلك الفرصة أبشع استغلال.

_ ربما بريء من ذنب خِطتي وارتباطنا، ولكنك لست بريئًا من ذنب حبي وقد كنت أكبر جرائمك وعن سبق إصرار وترصد.

كان زواجنا في حفل لم أكن أحلم به، حضره كل بلدتنا، لنصبح روحًا واحدة في جسدين، يلتقيان في جسد عندما تذوب الروح من الحبّ، لن تجدي ما أخفيه عنه ليال لتكشفيه، فأنا وآدم كتاب واحد مفتوح صفحاته لكلينا لن يستطيع إغلاقه سوانا، وغير مقبول في قصتنا كلمة النهاية.

****

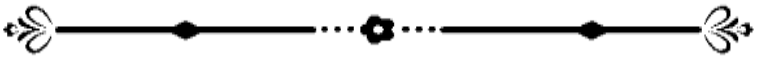

الفصل الرابع عشر

بحر هائج، أمواج عاتية تضربه بقوة تحاول إغراقه، كلما حاول النجاة بنفسه تجذبه الأمواج نحو البحر، يحاول أن يقاوم، لا يريد الاستسلام، لا يعرف كيف يعوم باتجاه البحر دون إرادة، لا يستطيع النجاة بنفسه رغم أنه يجيد العوم، لا يمكنه الرجوع، شيء بداخله يريد السباحة عكس اتجاه الأمواج، ينظر إلى الشاطئ، ليس من السهل المضي عكس التيار، إنّه بعيد، لابد له من العودة، ولكن كل محاولاته فاشلة، أناس يقفون على البر ربما يعرفهم وربما لا، ليس فيهم من يحاول مساعدته، يشير لهم، ينادي أنقذوني، يختفون، تلاشت صورتهم من أمامه وكأنهم وهم، يظل وحده في البحر يصارع الأمواج، موجة كبيرة، عالية، تجرفه بعيدًا، يبتلع المياه المالحة، يستمر في المقاومة، يشعر أنه لا جدوى، الملوحة تجتاح جوفه، ولكنّه يستمر في المحاولة، حتى وإن كان لا يعرف النتيجة.

يأخذ أنفاسه بصعوبة، يحاول فتح عينيه، ينتظر أن تمتد إليه يد لتنقذه، يأمل أن يأتي أحدهم ويساعده، يمنحه قبلة الحياة، يعيد نبضه المفقود، فيبث الرّوح فيه وتنتظم أنفاسه المتعثرة، مؤكد هناك من سيحاول انتزاع الماء المالح الذي اجتاح أحشاءه، ليعيده إلى الحياة من جديد.

....

بداخلنا جانب معتم كالقمر، لا يراه من يقف بعيدًا منبهرًا بضوءٍ هو انعكاس لشيء أعظم، ننخدع بنورٍ يزين ظلمة السماء، جعلناه رمزًا للجمال، رغم أنّه لا يستطيع أن ينبض فيه قلب محبّ، أو تتلاقى فيه أنفاس العاشقين، دائمًا نغفل عن الحقيقة المظلمة التي تختفي خلف وهج خادع وبريق زائف، وها هي تقف مودة أمام باب غرفته، لا تقوى على الاقتراب منه منذ أن رقد يوم عرفت بخيانته، بجوارها طفلها الذي يزور والده لأول مرة، يحمل في عينيه نظرة حائرة، لا يفهم ماذا يحدث، ولكنّه يشعر بالقلق والخوف، تتجه عيناه نحوها ثم يعود ويلتفت إلى والده بتردد يحدق فيه محاولًا استيعاب ما الذي يحدث، أخبرته أمه أنه نائم، لم ترد أن تحطم قلب طفلها بتفاصيل سترهق عقله وربما لن يتحملها، أخبرته أنّ أباه يريد سماع صوته حتى وإن كان نائمًا، لا يفهم ما كل تلك الأجهزة حوله، لا يعي سبب هذا الصوت المتقطع الذي يدوي في الغرفة بلا توقف، أرعبه رغم أنه لا يدرك أن تلك الذبذبات هي الأكثر اطمئنانًا في هذا المكان، حاولت ألا تضع طفلها في هذا الموقف من البداية، ولكنّها تعرف جيدًا مدى تعلق آدم بابنه، لم تستطع إلا تلبية رغبة الطبيب بحضور كل من يحبّهم، ونور أكثرهم قربًا إلى قلبه.

تقف صبا على بعد خطوات منها داخل الغرفة، تلك المرأة التي غيرت مقاييس كل شيء، وقدمت الحقيقة إليها على طبق من جمر، طبق مليء بالشظايا التي أذابت قلبها بنيران الحقيقة، بجوارها حنان، تنظر إلى أخيها

بحسرة، تنتظر المعجزة التي ستجعل عقله يستجيب ويقبل العودة إلى الحياة، الأمل يتصاعد في قلبها مع كل إشارة من الأجهزة بعدما أخبرهن الطبيب بأنه بدأ يُظهر استجابات لبعض المحفزات، اقتربت حنان تجلس بجواره، أمسكت يديه وهي تقول: حبيبي، هل تسمعني، نور الدين جاء ليراك.

بدأ الطفل في البكاء بصعوبة، محاولًا أن يكون قويًا كما وعد والدته، وقال بصوت مختنق: لمَ لمْ تعد كما وعدتني وتحضر لي الألعاب التي طلبتها؟

انتبهت حنان أنّ عينيه تتحركان تحت جفونه المغلقة بإحكام، لا تعرف إن كان حقيقيًا أم هُيّئ لها أنّ شفتيه ترتعشان، يتنفس بعمق رغم الأجهزة، لكنّه لم يفتح عينيه بعد، نظرت إلى الطبيب الذي يراقب المشهد من بعيد لا تستطيع أخذ أي انطباع منه.

فُتح باب الغرفة، دخلت شذى، تلك الفتاة التي كانت مع والدتها حين جاءتا للاطمئنان عليه، خلفها أمها بتردد، أفسحت لهما صبا المكان بابتسامة مجاملة وبإيماءة حركت رأسها لشذى تشجعها أن تتقدم، وقفت حنان مبتعدة عنه تحتضن الفتاة التي تعرفها جيدًا، وتركت مكانها بجواره لتحل شذى محلها، جلست بتوتر ومدت يديها المرتعشتين تلتقط يده من بين الخراطيم المغذية، وأمام ذهول مودة قالت: أبي، اشتقت إليك، متى ستعود؟ لا أستطيع العيش دونك.

أغمضت مودة عينيها بحسرة تتصارع على وجنتيها الدموع، تتسابق قطراتها لأسباب لا تستطيع حصرها، أخذت نفسًا عميقًا وكأنها تتأمل الهواء الخارج

من رئتيها، ودارت لتغادر الغرفة بهدوء، تاركة خلفها ابنه الذي يحاول فهم ما يحدث، وابنة شابة لا تعي كيف أخفاها عن العيون، وصبا التي تبتسم وتضع يدها على بطنها تعلن أمامهنَّ وجود جنينها، تستدعيه أن يحضر تلك اللحظة بعدما استجابت عينا آدم بتردد، وفتح سماءهما للحياة مرة أخرى.

....

خرجت من باب المستشفى بخطوات مثقلة، تجر خلفها بقايا قلب نكلت به الخيانة، دموعها تنساب على وجنتيها دون توقف، كفيضان أخذ الأمر بالتدفق بعد ليلة شتاء عاصفة، يجرف في طريقه كلّ ما زرعته في سنوات عمرها، تحمل حقيبتها في يد والأخرى تضعها فوق صدرها وكأنّها تمنع قلبها الهروب من بين ضلوعها المكلومة، السماء رمادية تستعد للبكاء معها، الشمس غائبة خجلة منها لا تريد أن تنير لها طريقًا آخر لتسير فيه، الهواء يصفع وجهها بعتاب على ما تركته خلفها، وانسحبت متنازلة عن حقها فيه، لم تكن تسير خطوات؛ بل كانت أميالًا من الخذلان، حاولت أن تأخذ أنفاسها ولكنها لم تجد في الهواء سوى رائحة الغدر.

_ أمـــــــي.

توقفت قدماها لتلبية النداء الوحيد الذي لا تقوى على رفضه، فالخيانة لن تقتل بداخلها غريزة الأمومة حتى وإن انفصل عقلها عن العالم، نظرت خلفها بعيون مرهقة؛ فوجدت نور الدين يقف ممسكًا بيد صبا التي تبتسم لها بتعاطف، لم تستطع إلا أن تبادلها ابتسامة ساخرة على أعتابها يرقد ألم

الفراق، ودارت لتكمل طريقها الذي لا تعرفه، فلقد عجزت شفتاها أن تلقي بحروف لم تعد لها معنى.

_ انتظري مودة، لم تنتهِ الحكاية بعد.

لم تستجب لندائها تلك المرة؛ فلم يعد ما يمكن أن يغير شيئًا من الحقيقة، تنظر لخطواتها على الأرض بعدما أخفت السماء الشمس لتبكي هي الأخرى، تختلط دموعها بقطرات المطر الباردة لتزيل عن وجهها أثر الهزيمة، ترى قدماها وسط المياه فتتمنى أن تغرقها الأرض أو تبتلعها لتتخلص من هذا الإحساس الذي يعتريها ويُعريها أمام نفسها، سمعت طفلها ينادي ولكن هذه المرة ليس عليها.

_ أبـــــــي...

رفعت رأسها بغير طواعية فما تفوّه به طفلها غير منطقي، ولكنّ وجهها اصطدم بمن يقف على بعد خطوات منها، بملامح ثابتة ينظر إليها في صمت، اعتقدت أنّها تتوهم كما حدث لها من قبل، ولكن كان صوت طفلها وظهوره في المشهد لا يحتمل الشك، صاح نور باسمه مرة أخرى يؤكد عليها أنه حقيقة أمامه وهو يحتضنه قائلًا: أخبرتني صبا أنك أحضرت كلّ الألعاب التي طلبتها.

وقعت الحقيبة من يدها، كادت أن تهوي على الأرض بجوارها، شحب وجهها، لا تعي أهي تعيش واقعًا أم وهمًا إثر الصدمة التي اجتاحتها منذ دقائق، تقدمت صبا مسرعة تلحق بها؛ فنظرت إليها بعينين شاردتين، تستنجد بها

في صمت أن تنقذها من هذا الجنون الذي يبتلعها؛ فقالت صبا بشفقة: إنه حقًا آدم، لم يكن في غيبوبة، مودة.

حركت رأسها بعدم فهم، أسرع ليقترب منها مادًا يده إليها لتستند عليه؛ فابتعدت عنه بمشاعر لا تعرف أهي خوف أم اشمئزاز، وقرر عقلها أن يفصل عن جسدها أي تأثير للعالم الخارجي، ليعطيها هدنة ربما تستطيع استيعاب ما يحدث؛ فسقطت غائبة عن الوعي.

****

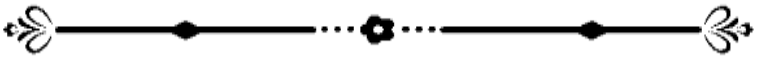

الفصل الأخير

آدم:

كوابيس ظلت تطاردني لسنوات، أبحث عن تفسيرها في نظرات كلّ من حولي، كلما آويت إلى فراشي محاولًا الهروب من الواقع، تسقطني الأحلام في عالم من الفوضى والقلق، تراودني صور مشوهة، تذكرني بجروح لم تندمل، تستفز مشاعري بطريقة لا يمكن تحملها، تلعب بي بين الماضي والحاضر، ككرة تقذفها المضارب بلا رحمة؛ فلا تجد لها مستقرًا، ترميني في فوهة مستقبل مجهول وحاضر مرعب، تعلقني في دوامة الفشل والخيانة، تسير في رأسي كجيوش من النمل قررت الحرب على أفكاري.

أتساءل كل يوم: من عليه الدور في السقوط؟ من سيخون ومن سيدوم؟ من سيكون هو العون والخلاص من هذا الهذيان؟

لقطات متقطعة لصورٍ مبهمة المعالم، أصوات مفزعةٌ تطلقها الجدران، أمواج عاتية، صور من الماضي، مرآة أرى نفسي فيها صغير، سيارات لا تأبه بصرخاتي، قطارات لا أنتظرها ولا أعرف ركابها، دهاليز مظلمة يستوطنها العنكبوت، هي المسار الوحيد لرحلتي، وجوه مشوشة، كأشباح عيونها خاوية، تظهر وتذوب في الظلام، نساء يتعمدن إخفاء وجوههن عني، جميعهن يرتدين السواد، لو فقط أعرف من هن، يظهرن لي بجرأة مثلما

يحاولن إيذائي بجحود، رؤى تطاردني حينما يغتالني النوم، تتركني كل مرة حائرًا بين سُبات يحتله الفزع ويقظةٍ يسكنها التيه، جعلتني أعيش كوابيس في الواقع تُكمل ما رأيته خلال النوم.

تبتُ إلى الله، ولكن ربما لم يقبل توبتي بعد، يريد أن يُخلصني من بقايا ذنوبي العالقة في أرواح من حولي، مربوط بأطراف خيط العنكبوت غير قادر على الخلاص، عواصف من حمأٍ مسموم تحاصرني.

هل من كان الملاذ لم ينجُ اليوم من الوقوع في الخيانة؟ هل ربيت بيدي ثعابين سامة، تلتف الآن حول رقبتي وتغرس سمومها في أعماقي؟ كيف لم أدرك أن من ظننتهم أمانًا كانوا في الحقيقة نقمة تقتات على ثقتي وتبث السم في روحي؟

أهذا تكفير ذنوب ما زالت عالقة بقاياها في قلبي وعليّ السعي أكثر للتخلص منها حتى تُقبل توبتي؟ أليس الله بغافر الذنب قابل التوب؟ فلمَ العقاب؟!

هناك أمل في الخلاص، جواز سفر للعبور لحياة أستحقها، وعليّ تحمل عثرات الطريق إليها، مؤكد سيحاسبنا الله على نوايانا، وأنا كنت حسن النية مع الجميع، سيغفر الله الخطايا فهو غفور رحيم، سيسامحني لأني بشر، وسبحانه رفيق بالبشر، كلّ شخص في تلك الحياة يستحق فرصة واحدة حقيقية يسير بها على الطريق الصحيح حتى يصل إلى الصراط المستقيم، وأنا

تمسكت بفرصتي حتى أكتشف الحقيقة التي تأتيني كإشارات في غفلة أو يقظة، الحقيقة التي ستنير ضباب حياتي وتريح قلبي.

لم أندم على اتهامي لأمي، حتى وإن لم تلبس ثوب الخيانة كاملًا، يكفي أنها فكرت أن تبيع الغالي لتشتري الرخيص، استحلت ما ليس حقًا لها، وتركت خلفها ظُلمة لم تنقشع، ما آلت إليه ليس بسببي، ولكنه نتيجة لأفعالها، قاسية هي بحجم قسوتي، بحجم جحودي وصلابة قلبي عليها، كانت باردة بقدر برودتي الآن كلما تذكرتها.

كم فرقت بيني وبين يونس، أخي الوحيد، خمس دقائق فقط هي الفرق بين ميلادنا، كانت كافية ليأخذ كل حبها، ويترك لي مشاعر فارغة، كافية لدرجة جعلتها لم تجد من اهتمامها فائض لتعطيه لي، كافية لأن تتمنى الخلاص مني وموتي لتتحرر من مسؤوليتي وهمي الزائد، عبء لم تحسب له حسابًا، فجأة أخبروها أنها أنجبت بدلًا من الولد اثنين، وكأن مشاعرها تهيأت لواحد فقط، غريزتها لم تقبل وجود آخر، ربما لو كانت ألقتني لإحدى القطط في الشوارع لكانت أرحم عليّ منها.

كانت عليه حانية، تحتضنه بحرارة لتلقي بي في غيابات الجب وصقيع الوحدة، كم فتحت له من أبواب رحمتها التي أغلقتها في وجهي، لم يكن عطفها عليّ سوى حلم بعيد المنال، دائمًا كنت في عينيها مُذنبًا بلا سبب، بلا أي مبرر سوى أني أشبه طباع أبي، أتطلع دومًا لأن أكون مثله، وجدت عنده الجنة التي لم أجدها تحت قدميها، وجدت فيه مدرسة حبها التي

حرمتني، لم ألق منها يومًا سوى العتاب، كم تمنت لو لم أكن موجودًا واكتفت به ابنًا يستحق برها، سهرت الليالي تحمله لتلقي بي بين أحضان كل من تسمح ظروفه أن يرحمني إهمالها، خطئي الوحيد أني ولدت، ولم يكن يجب أن أولد، أجبرتها أن تعيش الأمومة معي، فوضعتني في زوايا الإهمال والجفاء، لم أرَ في عينيها سوى البرودة، فراغ من المشاعر يحمل قسوة لا أستطيع فهمها.

حققت لها ما تتمنى، أصبحت بالفعل الابن العاق، الفاسد، وتركت لها ابنًا بارًا صالحًا يستحق حبها، وعقوقي كان لابد له من إثبات دليل يجعل التهمة لا تنتفي لأبد الآبدين.

تأكد أبي من غدرها بنفسه، أبعدها بلا رجعة كما تستحق، وبالطبع اختار كفتها ابنها المدلل، لم يُصدق عنها شيئًا رغم كل الإثباتات، رحل معها زاعمًا حمايتها، مؤمنًا ببراءتها، ولكنّه ما لبث حتى عاد يتوسل أبي السماح، بعدما انتهت كلّ مدخراتها وما اختلسته دون حق، أو ربما كما يقول بعدما عرف حقيقتها وتأكد بنفسه من غدرها، كان مدللًا لدرجة جعلته لا يستطيع تحمل مسؤوليتها ولا حتى مسؤولية نفسه، عاد ولكن كان قد فات الأوان، مات والدي بعد أن حمّلني عبء وصيته، لتصبح طوقًا حول رقبتي لا أستطيع الخلاص منه، ألا أفرط في أخي مهما كان.

أضاع ميراثه في مشاريع فاشلة، تزوج رقية، ابنة أختها، تشبه ملامحها، ومؤكد نفس دماء الغدر تجري في عروقها، من الوقاحة أنها كانت يومًا

تحاول جذبي إليها، لكن بعد ما حدث من خالتها وموقفي الصريح، تغيرت الدفة عليه، فلم يعد هناك أمل لكسبي، ولأنه ساذج غشيم وقع في فخها، لم يصدقني كعادته، عارضته، اتهمني بالغيرة، قاطعته؛ فابتعد عني دون محاولة للعودة، سنوات طويلة مضت أحاول تنفيذ وصية والدي دون أن يشعر بي حوله، أعطيه فرصة لتحمل المسؤولية التي تركها على عاتق زوجته، أعترف، خاب ظني بها، فقد تحملت غيابه كزوج وأب وشريك.

ظهرت شذى في حياتي، جميلة تلك الفتاة، خطفت روحي دون أن أشعر، لم أكن أصدق أنّ الدماء تحن إلا عندما رأيتها وأيقنت أنها ابنته، أحسنت رقية تربيتها، حتى وإن شككت أنها من أرسلها لي، فلقد قبلتها كهدية، دخلت عليّ المكتب على حين غفلة، ابتسمت ببراءة وقالت: عمي آدم، لم أتخيل أنك نسخة من أبي بهذه الدرجة.

لا أعرف هل نسَيت الماضي، وتجاهلت قسوة الحاضر، تغاضيت عن كلّ الأفكار التي تحاول التأثير على قلبي، أخذتها بين ذراعي بسعادة، عروس جميلة هي، تخبرني بفخر أنها دخلت كلية الحقوق لتصبح مثلي، تتباهى بنجاحي الذي تسمع عنه من زملائها، تفتخر بي أمامهم، تخبر الجميع أني عمها وتوءم والدها، تتابع أخباري، وتنتظر اليوم الذي تعمل فيه في مكتبي، كيف لها أن تتحدث بهذه البساطة، رغم أنها تعلم أني أقاطع والدها؟ ما الذي جعلها توقن أني لن أخذلها أو أجعلها تعود بخفيّ حنين؟ تبنتها حقًا رغم أنها ابنتي التي لم أربيها بعد، سأكمل معها المشوار لتكون كما أحلم

وتصبو هي، فيكفي أنها تحمل اسم أبي ومن ذريته، اتفقت معها ألا تخبر أحدًا عن عملها معي، وقد كانت على قدر الوعد، تتدرب شهور الصيف في مكتبي، وتزورني في الشتاء كنسمة عطرة من بقايا العائلة.

في اليوم الذي غدرت عهد بي وأفشت أسراري، وداخل دوامة الخيانة التي اعتصرت عقلي، اتصلت شذى تخبرني سقوط يونس إثر أزمة قلبية بعد أن خدعه شريكه في العمل وخسر آخر ما يملك، لا أدري كيف وصلت إليها بهذه السرعة رغم ما أنا فيه، لا أعرف بعد كل ما كان بداخلي من قسوة تجاهه لمَ التاع قلبي عليه بهذا الشكل! طوال الطريق أخبر نفسي أنّ ما في قلبي ليس لأنه توءمي الذي أشعر به مهما ابتعدنا، ولكنها تلك الوراثة التي نقلت لي مرض القلب كما فعلت معه.

أمام المستشفى، طرأت الفكرة على عقلي، بدلت البطاقات، سجلت اسمي في البيانات، واتفقت مع شذى على كل شيء، تلميذتي النجيبة وابنتي التي من دمي، تحمل جيناتي بلا جدال، تفهمت خطتي وساعدتني دون نقاش، أقنعت والدتها أن تنفذ ما أريد حتى أتمكن من إصلاح ما أفسده يونس بسذاجته.

استطعت أن أرجع حقه؛ فإن لم أفعلها فلا أستحق أن أكون محاميًا ناجحًا، خدعت شريكه كما خدعه، لم يكن يعلم أني لست هو، لا أحد يعلم أنّ لكل منا أخًا نسخة منه في الشكل إلا القليل، كان مشروعًا بسيطًا، يستوردون لأجله بعض البضائع من الصين، سيطرت على البضاعة في

الجمارك؛ فعلاقاتي تسمح لي بأن أفعل أي شيء، وتمت المهمة أبسط مما تخيلت، وأعاد الشريك كل شيء لما كان عليه قبل طمعه حتى يتمكن من إخراج البضاعة.

أما مكتبي، خططت أن يعلم الجميع أني بالمستشفى، تعاطف الموكلون معي، وحتى من لم يفعل، لم يفكر في التشهير ولا الانتقام، ولكن كلّ ذلك ليس بمهم بالنسبة لي، فأنا أستطيع أن أعود وأقوى مما سبق، المهم الآن أن أعرف من الخائن ومن الأمين، من يستحق العيش في مملكتي، ومن عليّ رميه للقطيع خارج العرين، جاءت الفرصة لأعرف حقيقة رؤياي التي تطاردني فيها وجوه خفية.

الكلّ كُنَّ محل اتهام، مشكوك في ولائهن، انتظرت أن أشاهد بعينيّ رد فعل كلّ واحدة، قررت أن تنكشف الحقائق أمام الجميع وخاصة مودة، يجب أن تعلم كلّ شيء لتُثبت هي الأخرى براءتها حتى وإن لم ترتكب ذنبًا، تغتال عقلي فكرة أن تفعل مثل والدتي، أن تفكر في الميراث والخلاص ولا تهتم بحالتي.

اتفقت مع موظفة الاستقبال بالمستشفى أن تتصل بصبا فقط، حضرت خلال دقائق كالمجنونة، أعطت كلّ البيانات المطلوبة منها للموظفة دون تفكير في كيف دخلت المستشفى من الأساس؟! جرت بلا وعي تبحث عن مكان وجودي الذي لست فيه، كدت أصرخ خلفها: لا يا صبا، مهلًا بالله عليكِ من أجل طفلي.

إلى هذه الدرجة تحبينني؟ كيف سأستطيع الاستمرار في خطتي وأنا أراكِ تنهارين هكذا من البداية؟ اهدئي صبا، لن أصمد أمام انهيارك.

وحضرت مودة بعدها، ليست كما تمنيت، لم تفعل مثلها، لم تصرخ باسمي وتبكي قلقًا عليّ، كانت جامدة الملامح، لا دماء فيها ولا حياة، أهذا تأثير الخبر؟ لماذا أنتِ باردة؟ لم أعرفكِ قوية متماسكة!

كنت أقف بعيدًا، بجواري شذى تحاول إثبات قوتها أمامي، تنفطر روحي عليها وأنا أمنعها من الاقتراب من والدها والاطمئنان عليه، ويختلج قلبي على أخي الذي بين الحياة والموت ولم أعد أكابر في الاعتراف بقلقي عليه.

تتحدث صبا مع مودة، كانت ستعلم بوجودها يومًا ما، لا مشكلة، لن أسمح أن يكبر طفلاي إلا معًا، وهذا هو الوقت المناسب للهروب من مواجهة رد فعلها.

دخل الجميع الغرفة فجأة، لم أقاوم الاقتراب، لم أفكر حينها إن رآني أحد ماذا ستكون النتيجة، اقتربت صبا منه، أمسكت يده وقبل أن تشغلني الغيرة، ابتعدت بخوف تنظر إليه وتتأكد من تفاصيله وملامحه، التصقت بالحائط بفزع، سقطت أرضًا برعبٍ، تملكتني مشاعر متخبطة، لقد عرفت صبا أنه لست أنا، أعرفت تفاصيلي المختلفة عن توءمي أم قلبها أخبرها أنه غيري؟ تلك التفاصيل التي لم يستطع تفريقها سوى أبي وأمي وأختي فقط، هل أدركت أنه أخي؟ صبا الوحيدة دونًا عن كل من اقترب مني هي التي تعلم

بوجوده، لم أشك في ذكائها، لم تنطق بكلمة رغم خوفها، خرجت بعدها لتبحث عني.

انتظرتها في منزلنا، ارتمت على صدري تبكي بحرقة، لم تلُمني، لم توبخني كما توقعت، دموعها التي بللت صدري واخترقته وصلت إلى قلبي؛ فأرهقته أكثر من وجع المرض الذي عشت أتغافله وأنا أحاول الاستمتاع بحياتي دون اكتراث بأعراضه ولا مضاعفاته.

_ آسف صبا، حقًا آسف.

حتى العتاب لم تفعل.

_ قولي أي شيء.

احتضنتني بشدة، أمسكت قميصي وبقوة، تضغط على صدري وكأنّها تريد الدخول بين ضلوعي لتشعر بالأمان.

_ تكلمي صبا، عاتبي، لومي، اصرخي في وجهي.

_ أنت بخير، هذا يكفي.

تأكدت حينها أنّ من يحب لا ينقص من حبه عيوب حبيبه، يتأقلم معها وكأنها جزء من تكوينه، من يحب يبقى مخلصًا للنهاية، لا يصدق إلا ما يشعر به، حتى وإن كان عقله في صراع مع قلبه، يتغافل زلاته كأنّها لم تكن، يتسامح مع الأخطاء كأنّها لم تحدث، من يحب، لا ينطفئ مع النهايات؛ بل تظل نيران حبه متقدة، كما كانت البدايات.

اتفقت مع صبا أن تخبر مودة بكل ما تريد، بلا حذف أو تعديل؛ فهذا أنا ومن يقبلني فأهلًا به في مكانه، ومن يرفضني فبابي مفتوح دون أي موانع للخروج.

كنت أشاهد ردود فعل الجميع من خلال صبا، مرآتي التي كانت دومًا لا تخفي عيوبي عني ولا ترهبها، تتقبلها ولا تنفرها، من النادر أن تقابل من تدخل في أعماقه ويدخل أعماقك، تشعر بصفائه ونقائه تجاهك، يراك من الداخل كما تراه، يلمس روحك ويصدقها كما تصدقه، صبا فرصتي التي تعلقت بها لإصلاح ما فسد بداخلي.

عادت عهد نادمة تحاول دفن بقايا الخيانة التي سالت دماؤها أمام عيني، عادت تثبت إخلاصها رغم وجود احتمال ضعيف أمامها أن أعود للحياة، وتأكدت أنا أنّ خطأها لم يكن جسيمًا في حقي، فلقد عرفت قبلها من الكاميرات أن غيداء هي التي سرقت الأوراق من المكتب، تلك الفتاة التي أكرمتها وأحسنت معاملتها، لم أعطِها أي وعد بالحبّ، لم أتعامل معها بغير ما يسمح به طبيعة العمل، ولكنّها لم تفهم حسن معاملتي لها، أما عهد سامحتها دون أن تعلم فرصيدها عندي يسمح ألا تنتهي أبدًا حكايتنا معًا.

استمرت مودة في بحثها عن ماضٍ لم يعد له فائدة، والحاضر الوحيد المهم لها هو صبا وطفلها؛ فلمَ النبش في أسرار دُفنت مع أصحابها خارج قلبي؟!

حتى ليال التي عادت متخيلة أنّ بإمكانها الفوز في الجولة الأخيرة، كيف تطلب العيش مرة أخرى وهي من قررت الانتحار، الميت لا يعود وهي

ماتت في قلبي بلا رجعة، ماتت منذ أدخلت سارة في حياتي وتركت لها فرصة العبث بي واستغلال نزيف قلبي الذي لم يكن قد طاب بعد، سارة التي أحسنت استغلال الفرصة وأتقنت اللعبة، لم أحبّها، ربما حاولت لإثبات موت ليال بلا رجعة، ربما سمحت لها بتجاوز المسموح لغيرها، ولكن كيف لم أشك فيها وهي التي ظلت تعدني بأرض الأحلام التي سنعيش عليها في أمان؟ لم أربط حديثها وأفكارها ونظرتها للحياة إلا بالحرية التي شعرت بها معها، تستحق أن أخرج فيها جام غضبي من بني جنسها وجنسيتها، لم أندم على ما فعلته، فكيف لها أن تتخيل أن أخون وطني؟! لست خائنًا لأبيع أرضي وعرضي.

وجاءت حنان، لم تخيّب ظني، بالطبع عرفت أخاها، وأدركت خطتي منذ اللحظة الأولى، طاوعتني وساعدتني لأني وعدتها أن تنتهي كل بقايا الماضي بيني وبين يونس منذ تلك اللحظة، وافقت على أمل أن أعود بصفحة جديدة في الحياة ليس بها أية آثار ملوثة أو ضغينة يحملها الإخوة.

وأخيرًا اكتشفت أنّني نضجت بما يكفي، نضجت لدرجة جعلت كلّ الأمور تتلاشى أمام عيني، كلّ شيء كنت أراه كبيرًا صغر ولم أعد أهتمّ لوجوده، كل ما كنت أسعى إليه وأحلم بالحصول عليه لم يعد كما كان، نفرت من كل ما كنت أفعله وأسعى إليه، لا أرغب سوى في الستر، أيقنت أني لم أكن أبحث عن خائن للعهد؛ بل كنت أبحث عن أحدٍ ألقي عليه اللوم، أبحث عمن

أحمله سقطاتي وسهواتي وغرقي في ملذات الحياة، الحقيقة أنني كنت أنا الخائن الوحيد في الحكاية، الخائن لنفسي ولقلبي قبل أي شخص.

....

فتحت مودة باب السيارة التي دخلتها دون أن تدري، بعدما غابت عن الوعي، وابتعدت في صمت لا تنظر خلفها؛ فكل ما قاله كان كافيًا أن يتركها مشوهة الروح والقلب، ولم يعد هناك مكان للأمل في قلب مزقته الخيانة والخذلان.

****

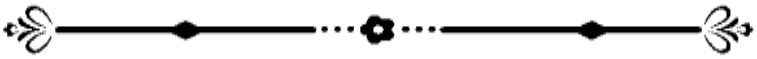

محتويات الرواية

إهداء.....5
الفصل الأول.....7
الفصل الثاني.....14
الفصل الثالث.....21
الفصل الرابع.....30
الفصل الخامس.....38
الفصل السادس.....44
الفصل الثامن.....51
الفصل التاسع.....61
الفصل العاشر.....70
الفصل الحادي عشر.....79
الفصل الثاني عشر.....88

الفصل الثالث عشر.....99

الفصل الرابع عشر.....106

الفصل الأخير.....112

محتويات الرواية 124

للتواصل مع الدار

التعاقدات

المعارض

الصفحة الرسمية

مسابقات

طلب إصدارات

الإعداد

التوزيع